نهاية حب

نهاية حب (رواية)
ليوتولستوي
تقديم ومراجعة: خالد سليمان
الطبعة: ٢٠٢٣

العربية للاعلام والفنون والدراسات الانسانية والنشر
٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكو ر - الهرم – الجيزة - مصر
هاتف: ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

http://www.azhabooks.com
E-mail: info@azhabooks.com

بطاقة فهرسة أثناء النشر

ليوتولستوي. - تقديم ومراجعة: خالد سليمان - نهاية حب
- الجيزة – أزهى، ٢٠٢٢
٢٠٣ ص، ١٨*٢١ سم.
الترقيم الدولي: ٩ – ٣ – ٨٦٢٨٧ – ٩٧٧ - ٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع: ١٩٨٠٩ / ٢٠٢٢

ليوتولستوي

نهاية حب

رواية

تقديم ومراجعة

خالد سليمان

مقدمة

ليو تولستوى هو واحد من أعظم الروائيين في العالم على مر العصور، فلم يكن مجرد روائي بل كان مفكرا من طراز خاص، عشق احترام الإنسان ودعا للسلام ورفض العنف بكل أشكاله وأنواعه.. حياته حافلة بالأحداث ثرية بالتوهج الأدبي والإنساني، عاش تولستوى «١٨٢٨-١٩١٠» حياته مغردا بعيدا عن السرب، عازفا أنشودته المتفردة، تمرد على نشأته الأرستقراطية وعلى ثرائه الواسع ورفضهما، واختار الانحياز للفقراء.

التحق بالجامعة، ولما لم تمنحه ما أراد تركها وثقف نفسه بنفسه، ولجأ للكتابة ومنحها عمره، وتفرد بموهبة لن تتكرر في الابداع، فهو روائي واقعي وفيلسوف صادق مع نفسه قبل أن يكون صادقا مع المجتمع، وهو مصلح اجتماعي لم يكتف بالتنظير ولا بالكتابة عن أفكاره ومعتقداته بل حولها لحقيقة، فأسس مدرسة لأبناء المزارعين يعلمهم فيها، وأنشأ مجلة تربوية ينشر بها نظرياته التربوية وفكره الإصلاحي ومد يد العون للفلاحين وأعطاهم حقوقهم.. عاش حياة المزارعين وترك عائلته الثرية ودعا للمساواة بين البشر، فأطلقوا عليه لقب محامي الفلاحين الروس، وامتزج بالواقع الروسى وأبدع بتصويره وكشف الزيف في العلاقات الاجتماعية. وفي إبداعه تميز بالواقعية والصدق وعمق التحليل النفسي، حتى يكاد القارئ لأعماله أن يرى أبطال القصص ويتعايش معها لدقة التصوير الإنساني، وبرز ذلك في كل رواياته خصوصا «الحرب والسلام» و«آناكارنينا».

عاش تولستوى حياة قاسية، فقد ماتت أمه بعد عامين من ولادته وبعدها بسبعة أعوام مات والده وتولت عمته تربيته، ثم ماتت لتتولى عمة أخرى رعايته، تزوج صوفيا وأنجب ١٣طفلا مات منهم خمسة، ونشأت معارك بينه وبين زوجته لكراهيتها إنفاقه على المحتاجين، وأجبرته على التنازل لها عن كل عائدات عمله وبسببها قال: لا أحد يستطيع إعلان رأيه في زوجته إلا إذا أحكموا إغلاق باب قبره.

ترك تولستوي البيت لزوجته وعاش بعيدا عنها حتى وافته المنية .. فطن مبكرا لأهمية ملء عمره بالعمل والانجاز، فنشر أولى رواياته «الطفولة» عن سيرته الذاتية وعمره ٢٤عاما، وكيف لا يبدع مبكرا وهو القائل: على المرء إذا أراد العيش بشرف وكرامة أن يتمتع بالقوة ويصارع كل المثبطات فإذا أخطأ بدأ من جديد وكلما خسر عاود الكفاح موقنا أن الخلود إلى الراحة دناءة روحية وسقوط.

وفي أعماله كان تولستوي يهتم بالبحث عن الهدف والمغزى من الحياة وكيفية معايشتها وظهر ذلك بمعظم رواياته وفي سيرته الذاتية التى أوضحت شغفه بصنع حياة لها معنى تمنعه من التفكير بالانتحار عندما لا يجد هدفا للحياة.وتحدث في رواية «موت إيفان إيليتش» عن معاناة موظف من خوفه من الموت وانغماسه وتفانيه في العمل، وقد أجاد تصوير الواقع فنقل للقارئ مظاهر الترف بروسيا عندئذ، وتفاصيل الفقر المدقع أيضا وخبايا البشر خاصة في رائعته «الحرب والسلام» وضمت شخصيات تاريخية وأخرى خيالية وكتبها في أكثر من ألف صفحة، وجسدت الحياة في فترة غزو نابليون لروسيا، وقدم بانوراما مذهلة عن الحياة وقتئذ ومشاعر

الأمهات والآباء عند فقد الأبناء بالحروب. أما في روايته الأشهر «آنا كارنينا» فغاص في النفس البشرية، وقدم مشاعر زوجة تعيسة تهرب من زواج يسلب سعادتها وفضح زيف العلاقات الاجتماعية وكذبها وتناقضات المجتمع الروسى.

وقد قال الكاتب الفرنسي الكبير أناتول فرانس عن تولستوي: «إننا نحني رؤوسنا أمام تولستوي، الذي يفوح منه عطر مملكة الجمال الفكري على الإنسانية جمعاء»، وقال عنه توماس مان: «إن قوة فن تولستوي فوق أية مقارنة».

لقد ارتفع إنتاج تولستوي الأدبي ليصبح قمة من قمم الأدب الواقعي الكلاسيكي في القرن التاسع عشر، بفضل موهبته المذهلة، وإدراكه لدور الفنان الذي لخصه على النحو التالي: «إن الفنان، فنان فقط، لأنه يرى المواد لا كما يرغب في أن يراها، بل كما هي في الأصل». لقد ولد تولستوي عام ١٨٢٨، وواصل الكتابة لفترة تزيد عن نصف قرن، وبعد وفاته عام ١٩١٠ كتب عنه لينين عدة مقالات، يقول في واحدة منها: «لقد توفي تولستوي ومضت روسيا ما قبل الثورة، روسيا التي عَبَّرَ هذا الفنان العبقري عن ضعفها وقوتها في فلسفته، وصورهما في مؤلفاته، لكن في تراثه أشياء لم تذهب مع الماضي.. بل بقيت للمستقبل».

وبالطبع فإن الكثير من تولستوي سيبقى للمستقبل لكي نتعلم منه، ولكن أهم ما يجب النظر إليه والتمعن فيه هو: منهج تولستوي الواقعي، وفهمه للفن، ودور الفن.. وهذا كله يبين في رواياته وقد استخلصه النقاد،

لكن تولستوي زاد الأمر وضوحا بأن كتب ذات مرة مقالا قال فيه رأيه بضوح عن الفن، ويكشف عن رؤية ذلك الفنان العبقري لماهية الفن، وحين يفرغ القارئ من مطالعة تلك المقالة التي نقدمها هنا، سيكتشف «ماهية الفن» التي خلقت «الحرب والسلام» و«آنا كارنينا»، وغيرها من روائع الروائي الكبير.. إن هذه المقالة تهدم بوضوح كل الأسس التي تقوم عليها النظريات التي تعتبر أن قوة الفن تكمن في جماله، وأن دور الفن هو «الإمتاع».

إن تولستوي يقدم تصوره للفن، باعتباره ضرورة رافقت التاريخ البشرى كله، حيث تتقاطع رؤية الكاتب العملاق مع أفكار ما زالت تشيع: هل للفن هدف؟ أم أن الفن يستهدف المتعة الخالصة، بمعنى هل هناك دور محدد لا بد للفن من القيام به، أم لا؟ وعلى الرغم من الإطالة التى قد يحسها القارئ في شرح تولستوي لفكرة (قدرة الفن المتمثلة في عدوى الآخرين بالمشاعر)، إلا أن القارئ يلمس أيضًا ما هو جوهري وهام، أي تحديد تولستوي للفن باعتباره وسيلة للتواصل الروحي بين البشر، باعتباره شرطًا من شروط الحياة الإنسانية، مثله في ذلك مثل اللغة، وهو ـ مثل اللغة ـ يتخلل كل جوانب حياتنا، ويوسع تولستوي من فهم «الفن»، فيخرجه من الإطار الضيق الذي اعتدنا النظر إليه، ذلك «أن الحياة الإنسانية بأكملها، ممتلئة، ومترعة، بمختلف أنواع الإبداع الفني من كل صنف، بدءًا من أغاني المهد، والنكات، والتقليد الكاريكاتوري، وزينة النساء، والبيوت، والملابس، حتى الطقوس الكنسية، ومواكب الجنازات. كل ذلك نشاط فني». وليست: "العمارة والتماثيل والشعر والرواية، إلا أصغر قسط من ذلك الفن الواسع الذي نتعامل به مع بعضنا البعض في

الحياة". إن إدراك الفن على ذلك النحو، لا يوسع منه فحسب، ولكنه يكشف عن كونه ضرورة ملازمة للحياة، ذات هدف، وليس هدفه هو «الجمال» في حد ذاته، بل التواصل، والتعارف الروحي بين البشر.

إن هذا المعنى للفن يتجلى دائما في روايات تولستوي وبخاصة روايته الفاتنة "نهاية حب"، وقبل أن ندع الكتاب بين يدي القارىء دعونا نتوقف قليلا أمام هذه الرواية البديعة ، فروايات تولستوي تتميز بقدرتها على التفاعل مع الأحداث وقابليتها للتجدد وتصحيح مسار المواقف، لأنها عكست الحياة الروسية بشكل عميق وواقعي، بما فيها من أفكار وعادات. وقد شملت مؤلفاته بعض المواضيع التي تجسد الواقع الروسي والواقع الإنساني على مستوى دول العالم.. رواية "نهاية حب" تتناول قصة حب نشأت بين أحد ضباط الجيش الروسي، وفتاة قروية بسيطة من إحدى قرى بلاد القوقاز. بدأت تلك القصة عندما دخلت كتيبتان من الجيش الروسي إلى قرية الفتاة في إحدى رحلات التدريب الخاصة بالجيش. ويوضح تولستوي في الرواية همجية الجيش الروسي، عندما كان يتنقل بين القرى دون اعتبار لعادات وتقاليد أهلها، كما يوضح الفرق بين عادات وتقاليد الشعب الروسي والشعب القوقازي.

إن "نهاية حب" هي واحدة من أهم روايات تولستوي، فتركز بدقة على الصراع النفسي الذي خاضه الضابط الروسي بسبب هذا الحب، وكيف سيقنع أهله بهذا الزواج وخاصة أن الشعب الروسي يرى باقي الشعوب الآخرى أقل منه بما فيهم الشعب القوقازي. وتنتهي القصة الحب بتحول حب الفتاة لكراهية شديدة، بسبب مقتل الكثير من أهل القوقاز

على يد الجيش الروسي.

وتدور الأحداث في قرية نوفوميلينسكايا وهي إحدى قرى مدينة القوقاز حيث تقع قصة حب كبيرة بين ثري روسي يُدعى "أولينين" وفتاة قوقازية تدعُى "ماريانكا" حيث تؤثر ماريانكا في أولينين كثيراً وتساهم في تغير أفكاره أتجاه الحياة. ويشعر أولينين مع ماريانكا لأول مرة في حياته بالسعادة التي لم يستطيع جنيها بالمال ولكن لم تسير الحياة في نفس الأتجاه حيث تبدأ رحلات بعض كتائب الجيش الروسي إلى قرية "نوفوميلينسكايا" مما يستدعي غضب القوقازين من أهل القرية الذين ينفرون من وجود الغرباء الروسيين في وسطهم.

وتنعكس هذه الأحداث على ماريانكا حيث يتبدل حبها لأولينين إلى كره بعد مقتل الكثير من أهلها القوقازين على يد عساكر الجيش الروسي، ويناقش ليو تولستوي من خلال رواية نهاية حب بعض القضايا الهامة كالحب والصراع بين الأجناس والطوائف كما يقوم بالاسقاط على بعض الأحداث العسكرية والتاريخية المعقدة التي مرت بها روسيا وذلك من خلال تصوير طريقة تعامل الجيش الروسي مع المناطق الخاضعة لحكم روسيا.

خالد سليمان

الفصل الأول

نوفوميلينسكايا اسم قرية في بلاد القوقاز. وصلت إليها كتيبتان من مشاة الجيش الروسي في رحلة من رحلات التدريب، وعلى الفور خلع الجنود السروج عن جيادهم وصفت العربات الضخمة في ساحة القرية. واغتصب الطباخون الحطب من البيوت المجاورة ثم حفروا في الساحة حفرة، وأشعلوا النار لطهو الطعام، وتمت المناداة على الجنود لإثبات حضورهم أما الأمناء فراحوا يتجولون في الطرقات ويرشدون إلى المواضع التي تدق فيها الخيام، وكان الجميع يتصرفون بلا حرج كأنهم في مسقط رأسهم وليسوا طارئين على شعب يختلف عنهم وإن كان تابعا مثلهم لقيصر موسكو.

فهل ينظر تلك القرية إلى نزول الجنود الروس في بلدهم بعين الرضا والارتياح؟

لم يخطر هذا السؤال ببال جنود الكتيبتين، فليست هذه أول قرية من قرى الأمبراطورية يحلون بها غير مبالين بمشاعر أهلها فالمهم عندهم أنهم على أثر الانتهاء من التثبت من وجود الجنود انفرط عقدهم وسمح لهم بالاخلاد إلى الراحة. وكانت الرحلة الشاقة قد هدت قواهم، وكستهم طبقة كثيفة من التراب.

وانطلق الجنود في طرقات القرية يمرحون ويهرجون، كأنهم خميس من الجراد يوشك أن يحط على حقل مثمر. وكان هذا المرح والتهريج أكبر

دليل على عدم مبالاتهم بشعور أهل القرية فها هم يدخلون بيوت الناس اعتباطا، ويلقون بحقائبهم على الأرض ويشرعون في ترتيب حوائجهم ويمازحون الأطفال والنساء، كأنهم بين ذويهم!

وبعد أن استقر كل جندي في المنزل الذي قادته إليه الصدفة وغسل عن وجهه آثار الرحلة هرعوا جميعا إلى قدور الطعام الكبيرة في ساحة القرية وأحاطوا بالنيران التي ارتفع دخانها إلى عنان السماء. وراحوا يتبادلون النكات والسخرية بأهل القرية انتظارا لنضج الطعام، لأن طريقة معيشتهم وطباعهم تختلف اختلافا شاسعا عن معيشة الروس وطباعهم. وارتفعت من كثير من البيوت صرخات النساء الحانقات لما يبديه الجنود الروس من مجون وسلب واستهانة بحقوق الملكية وحرمة المساكن الخاصة ولما رأى الأطفال أمهاتهم حانقات صارخات، استولى عليهم الذعر وتعلقوا بأذيالهن، أو قبعوا في الأركان يرقبون حركات الجند بفضول وتوجس فهذه أول مرة ينزل فيها الجنود الروس بهذه القرية القوقازية. أما ذوو السن من القوقازيين فكانوا يخرجون من البيوت صامتين واجمين، ويفترشون مصاطبهم أمام عتبات أكواخهم، وينظرون إلى حركات الجنود نظرة من لا يعنيه من ذلك كله شئ.

وكانت هاتان الكتيبتان الروسيتان تضمان من بين المشاة شابا روسيا نبيلا ثريا متوقد الحس، قلق الذهن والنفس، كان قد التحق بهذه الفرقة برتبة طالب في المدرسة الحربية منذ ثلاثة أشهر. وقد اختار لنفسه بيتا من أفضل بيوت القرية. وهذا الشاب هو أولينين بطل قصتنا. أما صاحب البيت فكان يحمل رتبة الضابط الشرفية في الجيش الروسي، وهو حامل

العلم إيليا فاسيليفتش وزوجته هي السيدة أولينكا، والرجل من أغنى أهل القرية وأكثرهم بخلا.

وقال فانيوشا (الجندي المراسلة) لاولينين وهو يلهث من التعب:

– ها قد وصلنا يا سيدي. والله أعلم كيف ستكون معيشتنا هنا!

فأجابه أولينين وهو يداعب جواده الأصيل:

– ولماذا تقلق؟ سنعيش كما يعيش الناس!

ولو نظرنا إلى اولينين لوجدناه ذا شارب خفيف ولحية قصيرة، متورد الوجنتين، كساه السفر الطويل سمرة خفيفة. وقد ارتدى زيا جركسيا أبيض اللون، لطخته الرحلة بالأوساخ، وفوق كتفه بندقية. وكان واضحا انه لا يحسن ارتداء ذلك الزي، ولا يبدو فيه من أهل البلاد. فكأنه ممثل في ثياب التمثيل، والتفت فانيوشا بشعره الأحمر المشعت إلى أولينين صائحا:

– أنت متفائل دائما ولكن جرب ان تتحدث إلى أحد الأهالي وأراهنك أنك لن تظفر منهم بكلمة، لأنهم يعرضون عن الغرباء دائما، إنهم ينفرون من الروس، ويختلفون عنهم في كل شئ سنجد هنا المتاعب التي لا حد لها فما العمل؟

– الأمر بسيط. اعرض المشكلة أمام شيخ القرية.

فحملق فانيوشا، وقال بغيظ:

– شيخ القرية؟ من يدلني عليه؟

فابتسم أولينين ووضع يديه على كتفي فانيوشا خادمه الأمين وقال:

– من الذي أثار غضبك هكذا؟

تلك العجوز التي لها سحنة العفاريت! إنها امرأة سيئة الطبع لا يمكن معاشرتها، ومن المستحيل أن نعيش هنا. إنهم أشد عداوة للروس من التتار أنفسهم. ومع ذلك يزعمون أنهم مسيحيون.

وابتسم أولينين وقال وهو يتطلع إلى البيت:

– أليس هذا البيت شبيها ببيوت الخدم في وطننا؟

فهز فانيوشا كتفيه وقال:

– لك أن نضحك يا ديمتري اندريفتش كما تشاء. ولكنك سترى بعد قليل مع أي قوم سوف نعيش هنا!

– هون عليك يا فانيوشا. واطمئن. فسأدخل بنفسي وأسوي جميع المسائل مع أهل الدار. وسترى بعد ذلك أن الحياة هنا ستكون حافلة بالمرح والنعيم. وأرجوك أن تترك الغضب.

وهز فانيوشا كتفيه وتعقب سيده بنظرة استهانة. وكان فانيوشا قد التحق بخدمة سيده وهو في الحادية عشرة. وكان أولينين يومئذ في نفس سنة فتعلق به. وفي سن الخامسة عشرة لقنه الكتابة والقراءة. بل وعلمه طرفا من اللغة الفرنسية. فصار فانيوشا شديد الاعتداد بتلك المزية وصار "يرطن" بالفرنسية إذا استولى عليه السرور، ثم يضحك مزهوا بنفسه وصعد أولينين سلم المدخل ثم دفع بابا الدار فانفتح. ووثبت ماريانكا من مكانها مروعة. ولم يكن عليها وقتئذ إلا قميص وردي اللون، فهذا شأن نساء

القوقاز طول النهار ما دمن داخل بيوتهن، والتصقتماريانكا بالحائط كمن تريد أن تتوارى في داخله، ثم غطت وجهها بكمها الفضفاض.

ولما لمح أولينين في عتمة المدخل شبح الفتاة القوقازية بقدها الممشوق راح ينظر في لهفة إلى ذلك الجسد العذري الناضر ينم عنه هذا القميص الشفاف، وملأ عينيه من هاتين العينين السوداوين الدعجاوين، اللتين تحملقان فيه في فزع طفلي، كأنها غزال أخذ على غرة ولكن هذه النظرة لم تكن لتخلو من تطلع ساذج وخفر مطبوع.أما السيدة أولينكا فكانت منصرفة إلى الكنس في قميص كقميص ابنتها، وكان ظهرها إليه فلم تره. فقال يخاطبها:

– طاب يومك يا أماه! أتيت لنتفق بصدد سكناي لديكم.

فالتفتت إليه المرأة من غير أن تقف، ورمقته بنظرة شذراء:

– كيف دخلت هنا؟ سأعلمك كيف تستهين بنا!

وأصيب أولينين بصدمة من هذا الرد إذ كان يعتقد أن القوم سيستقبلون الجيش الباسل عند وصوله من رحلته الطويلة الشاقة بالتهليل والترحاب. ومع ذلك غالب حنقه وحاول أن يشرح للسيدة أولينكا أنه جاء لدفع أجرة المسكن، ولكنها صاحت:

– مسكين؟ ومن الذي يريد إسكان قرموط مثلك؟ انتظر إلى أن يعود رب البيت فيدلك على المكان الذي ستنزل فيه. أما نقودك القذرة فلا حاجة لي بها! فقال أولينين يحدث نفسه:

– صدق والله فانيوشا! إن التتار أفضل من هؤلاء القوقازيين! وخرج من البيت يتعثر في لعنات السيدة أولينكا. وفي هذه اللحظة مرقت بجواره ماريانكا وقد تنقبت "بيشمك" أبيض وانطلقت تنزل السلم وقدماها الحافيتان تطرقعان على الدرج. ولما تجاوزته قليلا استدارت وألقت عليه نظرة خاطفة فرأى الضحك في عينيها الجميلتين ثم اختفت وراء الكوخ وخفق قلبه لرشاقة جسمها الغض وهي تجري كالحيوان الوحشي فأتبعها بنظره، وتلاشت من ذهنه جميع مصاعب المسكن.

وفطن فانيوشا إلى اهتمامه بالفتاة فقال:

– إنها متوحشة مثل جميع مواطنيها. أما أشبهها بالمهرة الوحشية!

ولما رأى وجنتي أولينين تتضرجان بالاحمرار انفجر ضاحكا وقال بالفرنسية الركيكة:

– فتش عن المرأة!

وقبل حلول المساء عاد حامل العلم من صيد السمك عند النهر. وأخبرته زوجته أن الطالب بالمدرسة الحربية قد اختار بيته لإقامته وأراد أن يدفع الأجر فهدأ ايليا فاسيليفتش من ثورة زوجته، وأبدى استعدادا حسنا لتقديم جميع التسهيلات.

وانتقل أهل الدار إلى البيت الشتوي تاركين الكوخ الصيفي لإقامة أولينين، في مقابل ثلاثة روبلات في الشهر. وبعد أن استقر أولينين في الكوخ أصاب شيئا من الطعام ثم نام قليلا. ولما استيقظ أشعل سيجارة وجلس بجوار النافذة المطلة على الطريق ليستنشق النسيم الرقيق. وكانت

السكينة مستولية على القرية كلها، لأن الجنود كانوا قد تعبوا من التهريج فخفتت أصواتهم.

وبين الحين والحين كان يصل إلى سمعه من مكان قصي فيما وراء نهر ترك صوت طلقات نارية متقطعة فشعر أولينين بسعادة عظيمة لهذا الاستقرار والهدوء، بعد أن قضى في خيام المعسكرات المضروبة بالعزاء زهاء ثلاثة أشهر بل انه شعر بوجهه وقد غدا يضا ناضرا بعد أن غسله، ودب النشاط في بنيته القوية على أثر الاستحمام. بل إن النشاط والصفاء شملا ذهنه كذلك. وأخذت تراوده ذكريات صباه في موسكو فبدت أمام عينيه وكأنها صفحة طويت منذ أمد بعيد، ولم يعد أمرها يعنيه في شئ. وإنما المهم عنده هو حياته الجديدة هذه، قد دخل في زمرة الجنود القوقازيين. فلا هدف له اليوم إلا كسب المجد بهذه الصفة، واحتلال مكانة مرموقة في قلوب أهل تلك البيئة الجديدة. ثم راح يقلب عينيه في مسكنه الجديد الصغير مفتونا بهذا الإطار المتواضع الهادئ البسيط الذي يحيط بحياته. ويمني النفس بأنواع من المسرات البريئة وسط هذه الطبيعة المهيبة التي تكتنفها الجبال. وشهد اولينين أطفال القرية يتجمعون في الطريق للسمر الليلي. ثم رآهم يهرجون ويتماجنون بشيخ يحمل بندقية وقد علق في حزامه عددا من الدراج المقتول. والفتيان يصيحون بالشيخ:

– العم بيروشكا! سيبيع خنجره ليشرب كأسا!

وسقط الضوء من النافذة على وجه الشيخ، فإذا وجه معبر يدل على الذكاء وحضور الذهن، وبنية قوية فصاح أولينين:

– اسمع يا عم!

فنظر الشيخ إليه ووقف في مكانه، ثم رفع قبعته الصغيرة عن رأسه الحليق قائلا:

– طابت ليلتك أيها الصديق الهمام!

– طابت ليلتك. ما الذي جعلهم يتماجنون بك يا عم؟

فاقترب الشيخ من النافذة وقال بصوت موسيقى متناسق وقور:

– لا عليهم أن يتندروا بشيخ مسن. فهذا شئ أولع به الصغار من قديم. وأنا لا أضيق بهذا العبث. بل استطيبه.

وتردد الشيخ برهة ثم استطرد:

– أأنت قائد الحامية؟

فضحك أولينين وقال:

– لست قائد الجند طبعا. أنا طالب في المدرسة الحربية. ولكن اخبرني من أين اصطدت هذه الطيور؟

فاستدار الشيخ وأولاده ظهره العريض كي يريه الطيور الثلاثة التي ربط رؤوسها بحزامه فلوثت سترته بالدم، وقال:

– صدتها من الغابة. ولكن ألم تر الدراج من قبل؟ خذ اذن اثنتين منها!

ودفع إليه من خلال النافذة بدراجتين ثم سأله:

– أأنت من هواة الصيد أيضا؟

– نعم. وقد صدت أربع دراجات خلال الحملة قبل حضورنا إلى هنا. إني أحب الصيد جدا.

– عظيم! والشراب؟ هل تشرب خمرنا الوطنية "الجكير"؟

– ولم لا أشربها؟ إني ممن يستطيبون الشراب!

فأشرق وجه العم بيروشكا وقال:

– عظيم! أنت فيما أرى شاب همام ظريف. وسنكون بإذن الله صديقين حميمين!

فقال أولينين:

– تفضل بالدخول لنشرب معا كأسا من الجكير.

– سأفعل. ولكن خذ الدراجتين أولا.

وبدا على سحنة الشيخ ان أولينين وقع من نفسه موقعا حسنا، وقدر ان هذا الطالب الكريم سيغدق عليه الكثير من الشراب بلا ثمن، فلن تذهب الدراجتان سدى.

عندئذ ظهر العم بيروشكا على عتبة الباب. وعندئذ تحقق لدى أولينين مبلغ ضخامة جسم هذا الشيخ العملاق. وتبين الأخاديد العميقة التي حفرتها الأيام والتجارب في وجهه المحمر ذي اللحية الناصعة البياض. ولفت نظره أن عضلات ساقيه وذراعيه وكتفيه كبيرة بصورة غير مألوفة في المسنين من الرجال. اما رقبته فكانت غليظة ذات طيات كأنها رقبة ثور. والندوب تملأ رأسه ويديه.

وخطواته سريعة خفيفة.وخلع الشيخ بندقيته ووضعها في ركن من الحجرة. ثم جال ببصره في أرجائها كأنها يثمن ما بها من أثاب ومتاع. وفاحت منه وهو يتحرك في الحجرة رائحة قوية تختلط فيها روائح الفودكا والجكسير والبارود والدم المتجمد واقترب العم بيروشكامن اولينين، ومد إليه يده الكبيرة السمراء:

– كوشكليدي!

وهي كلمة في لغة أهل تلك المنطقة معناها السلام عليكم. فقال له اولينين وهو يصافحه:

– كوشكيلدي!

فضحك العم بيروشكا وصاح به:

ما أجهلك! إن الرد الصحيح هو "حفظك الله". ولكنك ستتعلم كل شئ بمرور الوقت. فلست أول فتى ظريف دربته يدي. فمنذ مدة أقام بهذه القرية أحد مواطنيك الروس. وكان اسمه ايليا موسيبتش. وكان صديقا حميما لي، فجعلت منه فتى بمعنى الكلمة. جعلت منه سكيرا وساطيا وصيادا يا له من صياد!

فازداد اهتمام أولينين بذلك الشيخ الطريف وسأله:

– وأنا ماذا تنوي أن تعلمني؟

– سأصحبك لصيد السمك. وإن اشتقت إلى فتاة جئتك باحداهن! لقد جبلت على خدمة أصدقائي من جميع الوجوه. ولكني متعب. فلأجلس. والآن ألا تأمر لنا بشئ من الشراب؟ أليس عندك جندي مراسلة؟

وتحول عن أولينين وصاح بأعلى صوته:

– يا ايفان يا ايفان!

– من هذا الذي تناديه؟

– المراسلة! كل الجنود الروس اسمهم ايفان!

– صدقت والله! اسمه ايفان ولكني أدلله وأدعوه فانيوشا. يا فانيوشا! إلينا بشئ من الجكير من عند ربة البيت.

وهنا تدخل الشيخ في الحديث قائلا لفانيوشا:

– اسمع يا صاح! قل لها أن تعطيك جكيرا من الدن الذي فتحوه أخيرا. فالكل يعلمون أن في هذا البيت أحسن جكير في القرية. ولكن إياك أن تعطيها أكثر من ثلاثين كوبكا. فهذه العجوز طماعة!

وخفض بيروشكا صوته كمن يسر إلى اولينين بشئ خطير:

إن القوم ها هنا يبغضونكم معشر الروس ويرونكم أسوأ معدنا من التتار أنفسهم. أما أنا فلا أفرق بين روسي وقوقازي. ولهذا ينفر مني قومي. ولكني لا أكترث بذلك. فأنا أخو مرح، أحب جميع الناس بلا تفريق! هكذا أنا يا صديقي.

وربت الشيخ القوقازي على كتف أولينين في مودة سابغة.

الفصل الثاني

كان فانيوشا سعيدا لأنه كان قد فرغ من ترتيب البيت واستجم وحلق ذقنه عند حلاق الكتيبة وأبدل ثيابه. فلما دخل الحجرة على أولينين وبيروشكا جعل ينظر إلى الشيخ نظرة تطلع وحذر لا نظرة عطف. فكأنه أمام نوع من الحيوانات لم يشهد له مثيلا من قبل ونقل بصره من سحنة الشيخ إلى أرض الغرفة التي كان قد تعب في تنظيفها منذ هنيهة، وتتبع قدمي بيروشكا الموحلتين اللتين تركتا آثارهما واضحة على الأرض، وهز رأسه ثم اتجه إلى إحدى الأرائك، فأخرج من تحتها زجاجتين فارغتين، واتجه إلى البيت الشتوي وقد وطن النفس على أن يبدو مهذبا ظريفا وقال:

– طابت ليلتكم أرسلني سيدي لاحصل منكم على شئ من الجكير فهل تتفضلون علينا بشئ منه؟

ولم ترد عليه المرأة. أما الفتاة فالتفتت إلى فانيوشا في صمت وكانت واقفة أمام مرآة صغيرة تصلح منديلها الذي تعصب به رأسها فأدرك فانيوشا ما يخامرهما: وهز النقود في جيبه فصدر عنها صليل نحاسي. وقال:

– سأدفع لكم ثمن ما ستعطوننا أيها الفضلاء.

فقاطعته السيدة اولينكا قائلة:

– كم تريد؟

– لترا.

فقالت السيدة أولينكا لابنتها:

– احضري له شيئا من الجكير يا ابنتي. من ذلك الدن الذي فتحناه أخيرا يا عزيزتي.

فأخذت ماريانكا المفتاح وخرجت مع فانيوشا متجهة إلى القبو في فناء الدار. ومرت في طريقها بالنافذة. فسأل أولينين بيروشكا وهو يشير إليها باهتمام:

– من هذه الفتاة يا عم؟

فغمز الشيخ بعينيه ولكز أولينين بمرفقه وصاح به:

– لا تتعجل! اصبر قليلا...

ثم قفز الشيخ كالعفريت وأطل من النافذة وصاح كالثور:

– يا عزيزتي ماريانكا ألا تحبين عمك يا حبيبتي؟

ولم تلتفت الفتاة إلى كلامه، واكتفت بأن رمقته بعينيها السوداوين في نظرة بطيئة باردة وهي منطلقة في طريقها فصاح:

– أحبيني يا ماريانكا تكتب لك السعادة!

ثم عاد يغمز أولينين بعينيه وقال:

– سترى أنني أصلح لكل شئ فأنا خفيف الدم ذو حيلة ولكن أليست هذه الفتاة في جمال الملائكة؟

فهتف أولينين بحماسة:

– ما أحملها! اطلب منها أن تدخل!

فهز الشيخ رأسه وقال:

– إلا هذا! هذه الفتاة ستتزوج شابا قوقازيا اسمه لوكاشكا. قتل رجلا من الابركة منذ أيام قلائل. ولكن لا تقلق يا عزيزي الشاب ياذا الدماء الساخنة! سأدبر لك فتاة أجمل منها سأختارها لك كالشمس الطالعة. صدقني فأنا رجل فعال لما أقول.

فضحك أولينين مرتاعا وقال:

– أفي هذه السن وتقول مثل هذا الكلام؟ يا للخطيئة!

فحملق الشيخ في أولينين باستنكار:

– خطيئة؟ وما وجه الخطيئة في هذا؟ أخطيئة هي أن يملأ الفتى عينيه من فتاة حسناء؟ أو يداعبها؟ أو يحبها؟ أهذا هو حاكم في بلادكم البعيدة؟ ما أتعسكم! هذه لذة الحياة كلها وهي أيضا فطرة الله التي فطر عليها الخلق جميعا. الله خلقك يا فتى، والله هو الذي خلق الفتاة أيضا، وركب في كل منكما الشوق إلى صاحبه. لهذا خلق الله الفتاة، اية فتاة، كي تشيع الحبور والمسرات في قلب الفتى. هذا هو ما علمتنيه الحياة أيها الصديق!

وكانت ماريانكا قد اجتازت الفناء ودخلت القبو الحافل بالدنان وتوجهت إلى دن من بينها. وظل فانيوشا واقفا عند الباب ينظر إليها في الضوء الخافت ويعجب كيف أن الفتيات في هذا البلد لا يرتدين إلا قميصا، وزينتهن قلادة من النقود الفضية. فهذا شئ مباين كل المباينة لما ألفه الروس من فتياتهم.

وفجأة صاحت به الفتاة:

– لماذا تقف بيني وبين الضوء أيها العفريت؟ ما الذي سمرك في مكانك؟ اعطني الزجاجة.

وأعطاها الزجاجة فملأتها بالخمر، فلما مد إليها يده بالنقود دفعتها بعيدا عنها وقالت:

– اعطها لأمي!

ولم يرتبك فانيوشا بل قال في تودد:

– لماذا تبالغين في الغلظة يا عزيزتي؟

فضحكت الفتاة وقالت:

– وأنت؟ هل أنت تسيل رقة ودماثة؟

فقال فانيوشا بحماسة:

– أنا وسيدي من أكثر أهل الأرض لين جانب ودماثة خلق. حتى ان كل من نزلنا بدورهم كانوا يتعلقون بنا لحميد سجايانا ثم لا تنسي يا عزيزتي ان سيدي ليس روسيا عاديا. إنه من النبلاء.

وحملقت فيه الفتاة وهو يتكلم ثم سألته بهدوء:

– وهل سيدك متزوج؟

فانتهز فانيوشا هذه الفرصة وطفق يزودها بالمعلومات عن سيده في اهتمام.

– سيدي؟ إنه لم يزل حديث السن. والسادة الأشراف لا يتزوجون في باكورة شبابهم.

فشهقت ماريانكا وقالت وهي تدق صدرها:

– حديث السن؟! أثور كبير الجثة مثله أصغر من أن يتزوج؟.. وهل هو قائدكم كلكم معشر الجنود، هذا النبيل؟

فقال فانيوشا مباهيا بسيده:

سيدي لم يصبح ضابطا بعد. إنه طالب بالمدرسة الحربية. هذا صحيح، ولكنه أرفع مكانة من قائد جيش كامل. إن الجنرال يعرفه معرفة صداقة. ومولانا القيصر يعرفه جيدا. ووالده كان عضوا في مجلس الشيوخ. وله أملاك واسعة تدر عليه مالا بالقناطير. إننا لسنا كالمتسولين من الضباط العاديين.

وقاطعته الفتاة قائلة:

– هيا كي أغلق القبو!

فأسرع فانيوشا بالخمر إلى أولينين وقال له بالفرنسية:

– الفتاة بارعة الجمال!

واستخفه الطرب فقهقه ببلاهة ثم غادر الحجرة.

* * *

دوى النفير في ساحة القرية ايذانا بالغروب، وامتلأت المسالك المفضية إلى القرية بالقطعان العائدة من المراعي، وخوارها وثغائها يرتفعان

من جميع الأرجاء، والغبار الذي تثيره بحوافرها يملأ الجو وتنعكس عليه أشعة الشمس الجانحة للمغيب فيبدو ذهبي اللون، ولم تلبث الشمس إن غابت وراء المرتفعات البعيدة التي تجلل قممها عمائم بيضاء من الجليد، وأخذت زرقة الغمق تخيم على شئ، والنجوم الصغيرة الثاقبة تلوح في الآفاق البعيدة فوق الخمائل التي واراها الظلام فأضفت ظلالها على الماء مزيدا من الحلكة وشيئا فشيئا خفتت الأصوات، وعكفت النساء على إدخال القطعان إلى حظائرها، وتقديم العلف إليها، ثم أخذن في حلب الإناث، حتى إذا فرغن من هذه المهمة اليومية غادرن الحظائر والبيوت لالتماس النسمات على مفارق الطرقات، وهن يقزقزن لب عباد الشمس بأسنانهن الصغيرة الحادة البيضاء، ويتبادلن أطرافا من الأحاديث شأن القرويات في جميع أرجاء الأرض..

وكانت ماريانكا قد انتهت من حلب ما تحت يدها من بقر وجاموس، وخرجت لتنضم إلى إحدى تلك الجماعات. وكانت هذه الجماعة التي انضمت إليها تضم فريقا من النساء والفتيات، وبينهن أيضا رجل مسن. وكان الحديث يدور حول ذلك الرجل من الابركة الذي لقي حتفه. وكان القوقازي الشيخ يروي للنساء قصة مصرعه، وهن يستوضحنه، ثم قالت إحدى النساء معلقة على ما سمعت:

- لابد أن البطل سيحصل على مكافأة!

فقال القوقازي الشيخ:

- ليس في هذا شك. بل سمعت أنهم سينعمون عليه أيضا بوسام. مع

أن موسييف حاول أن يغتصب منه ذلك الفخر باتنزاع بندقيته منه إلا أن القادة في كوزليار سمعوا بحقيقه ما حدث.

– موسييف شخص حقير.

وانبرت إحدى الفتيات تقول فجأة:

– سمعت أن لوكاشكا عاد من النطاق إلى القرية.

– ولكن أحدا في القرية لم يره.

– ذلك أنه ذهب مع نازركا زميله إلى حانة تلك المرأة السيئة السمعة يانكا. وبلغني أأنهما شربا نصف دلو من الخمر هناك.

فقالت إحدى النساء:

– لا جناح عليه. فهو فتى ذكي الفؤاد لا يعجزه شئ. ثم ما أرجح عقله. ولكن الشئ من معدنه لا يستغرب. فوالده كرياكو كان على هذه الصورة. وقد اهتزت القرية لمصرعه..

وقاطعتها امرأة تشير إلى الطريق:

– ها هما إذن قادمان. ومعهما زميلهما بيرجوشوف. إنه وغد سكير لا يفلت فرصة نادرة كهذه للامتلاء بالخمر!

وكان الفرسان الثلاثة قد تجرعوا نصف دلو من الفودكا الثقيلة في حانة يانكا. ولذا كانت وجوههم محتقنة بالدماء. وكان بيرجوشوف العجوز يترنح بين صاحبيه ويعابثهما ويلمزهما في صدريهما. فلما اقترب الثلاثة من الفتيات صاح العجوز:

– لماذا تلذن بالصمت؟ هيا إلى الغناء تحية ومشاركة لنا في المرح.

فقالت إحدى النساء متخابثة:

– ولماذا نغني نحن؟ هل نحن في يوم عيد؟ أنتم سكرتم فغنوا!

فانفجر الشيخ ضاحكا وقد استخفه الطرب ولكز نازركا في صدره:

– فكرة وجيهة يا ولد؟ خليق بك أن تغني! أخجلان أنت من صوتك؟ سأبدأ أنا في الغناء. فصوتي جميل!

فنظر نازركا إلى النساء وقال لهن:

– ما أعجب شأنكن الليلة! لماذا حضرنا من النطاق إن لم يكن اللهو والمرح؟ ولم تفرط في الشراب. كل ما هناك أننا شربنا نخب لوكاشكا بمناسبة توفيقه في قتل الأبركة!

وعندئذ رفع لوكاشكا قبعته تحية للنساء في رزانة وتهذيب، إلا أن منظره كان يدل على القوة والفتوة والشباب. حتى وهو ساكن الحركة هادئ الأسارير. شأنه في ذلك كشأن الجواد الأصيل قد يقف راسخ القوائم في الأرض كأنه الصخرة، ولكنك تلمح في ذلك السكون من علائم الحيوية والفتوة والعنفوان ما لا تعبر عنه القفزات والألاعيب من عنزة لعوب وكان ينظر إلى الفتيات بعينين ضاحكتين ولا يتكلم إلا نزرا. وفي هذه اللحظة انضمت ماريانكا إلى الجماعة فرفع قبعته تحية لها في ثبات وتؤدة وأفسح لها مكانا لتمر، ثم وقف أمامها وقد قدم إحدى رجليه على الأخرى وشبك إبهاميه في حزامه العريض.

وردت ماريانكا على تحيته بإيماءة من رأسها. ثم استقرت مع النساء على المصطبة وأخرجت حفنة من لب عباد الشمس من صدر قميصها. ومدت إليه يدها. فتناول قليلا من اللب وجعل يقزقزه ويلفظ القشر، ممعنا النظر في ماريانكا وقد خيم على الجماعة الصمت منذ أقبلت ماريانكا عليهن كأنهن يحسسن لذلك وقعا خاصا.

وقطعت إحدى النساء حبل الصمت قائلة:

– أعازم أنت على الإقامة بيننا طويلا هذه المرة؟

فأجابها لوكاشكا في رزانة وثبات:

– سأبقى حتى صباح غد.

وفي هذه اللحظة مر بالقرب من الجماعة جندي من جنود الكتيبة الروسية فهتف بيرجوشوف ضاحكا:

– لقد حل بالقرية ضيوف كثيرون. ولكن لا بأس بذلك فخمر الجنود طيبة، وهم بها أسخياء!

فقالت إحدى النساء:

– لقد احتل بيتنا ثلاثة من هؤلاء الشياطين. وارتاع جدي العجوز المسكين وهرع إلى شيوخ القرية يستعيذ بهم فهزوا أكتافهم واعترفوا بعجزهم أمام هذا الوباء الحكومي الوافد.

فقال بيرجوشوف متعجبا:

– آه! هل نشأت من إقامتهم متاعب؟

فقالت امرأة أخرى:

– أنا أعرف أول هذه المتاعب. إنها رائحة طباقهم الكريهة. رائحة تضطر الواحدة منا إلى مغادرة الدار هربا منها. ولكني يا عزيزتي أبعد منك نظرا، لأني أقول لهم أن التدخين داخل الكوخ ممنوع. وعليهم أن يدخنوا في فناء البيت ما شاؤوا. ثم هم لصوص إن لم تفتح الواحدة منا عينيها جيدا سرقوا كل شئ تصل إليه أيديهم. ولكن هذا العجوز ابن الجنية لم ينزل بيته أحد منهم، فلا يعنيه هذا الأمر.

وقال نازركا وهو يميل قبعته على جانب رأسه:

– الأدهى من هذا ما بلغني من أن فتياتنا عليهن تسوية فراش هؤلاء الجنود وتقديم الخمر والشهد إليهم.

فقهقه بيرجوشوف وجذب إليه أقرب الفتيات وقبلها وصاح:

– كلامك والله صحيح. والجنود يفعلون هكذا مع الفتيات!

فصرخت الفتاة وهي تدفعه عنها:

– إبعد عني أيها الكهل.. سأخبر امرأتك العجوز!

– أخبريها! هذا لا يمنع أن ما قاله نازركا صحيح. لقد صدر منشور بهذه التعليمات. ونازركا يعرف القراءة.

واجتذب إليه الفتاة التالية ليعانقها فهمت أن تضربه:

– ماذا تريد أيها الوحش؟

– يا ساتر يارب! كدت توقعيني! ويقال بعد هذا أنهن الجنس الضعيف!

– إليك عني يا لكع! ما الذي جاء بك الآن؟ لقد كنت تغط في شخيرك حينما قتل لوكاشكا الابركة. ليته قتلك!

وكان لوكاشكا طيلة هذا الوقت يقف صامتا يقزقز لب عباد الشمس، ويملأ عينيه من ماريانكا. وأحرجت نظراته الفتاة، فاقترب منها وقال:

– قيل لي أن أحد رؤساء الجند نزل في بيتكم.

وكالعهد بها لم تسرع إلى الجواب، بل رفعت إليه عينيها السوداوين ولم تتكلم. فأجابت امرأة عجوز بدلا منها:

– هذا صحيح. ولكن لا بأس في ذلك ولن يلحقهم منه ضرر. فلهم كما تعلم بيتان. أما آل فومشكين المساكين فبيتهم الصغير الوحيد نزل به معهم رئيس، فملأت امتعته معظم البيت حتى ضاق بأفراد الأسرة. فهل سمع أحد بشئ كهذا من قبل؟ ثم لماذا أتى الجنود الروس إلى هنا؟ هل بلدنا ساحة حرب؟ لماذا لا يذهبون إلى الحروب؟

فقالت إحدى الفتيات:

– سمعت أنهم سينشئون قنطرة على نهر ترك.

واقترب نازركا من الفتاة الحسناء المستديرة الوجه أوستنكا وقال:

– بلغني أنهم سيحفرون حفرة كبيرة يدفنون فيها الفتيات الحسان اللواتي يرفضن مبادلة الفتيان الحب.

وأشار بيده إشارة تدل على أنه يعني بذلك نفسه. فضحك الجميع. ووثب بيرجوشوف إلى امرأة عجوز متخطيا ماريانكا، فصاح نازركا:

– ولماذا لا تقبل ماريانكا؟ إن عليها الدور.

فصاح القوقازي وهو يجبر العجوز على عناقه:

– إن هذه العجوز أشهى منها!

وضحكت العجوز ودفعته في صدره.

وقطع عليهم الضحك اقتراب ثلاثة من الجنود الروس يحملون بنادقهم ليحلوا محل رفاقهم في حراسة عربة الذخيرة. فساد الوجوم. وأفسح نازركا الطريق للجنود. بيد أن لوكاشكا ثبت في مكانه وقطب جبينه وأولاهم ظهره من غير أن يتحرك، ثم أتبعهم بنظرة احتقار، فأضحك ذلك ماريانكا، وانضمت لها الفتيات الأخيرات في الضحك، لأن منظر الجنود وهم يمشون مشيتهم النظامية كان مضحكا في نظر هؤلاء القوقاز.

واقترب لوكاشكا في تؤدة من ماريانكا وسألها:

– في أي بيتيكما نزل ذلك الرئيس؟

وتمهلت ماريانكا لحظة ثم أجابت:

– تركنا له الكوخ الجديد. الكوخ الصيفي.

فسألها وهو يهم بالجلوس بجوارها:

– أشاب هو أم شيخ؟

– وهل تظن هذا يعنيني حتى أتحرى عنه؟ في طريقي إلى القبو كي أحضر جانبا من الخمر، لمحته جالسا أمام النافذة مع العم بيروشكا. ويخيل إلي أن شعره أحمر اللون. هذا كل ما أعرفه ثم إنهم أحضروا معهم عربة مثقلة بالأمتعة.

فزاد لوكاشكا اقترابا من الفتاة التي غضت بصرها عندما رأته ينظر في عينيها نظرة صريحة وقال:

– إني لسعيد إذ استطعت الحضور الليلة من النطاق.

فافترت شفتاها عن ابتسامة يسيرة وسألته:

– وهل ستقيم بيننا طويلا؟

– إلى الغد. هلا أعطيتني شيئا من اللب؟

فملأت الابتسامة جميع وجهها، ودست يدها في صدر قميصها وأخرجت ما به من لب عباد الشمس ثم مدت إليه راحتها وقالت:

– لا تأخذه كله.

فهمس قائلا وهو يتناول حبات اللب من بين يديه:

–كم أوحشتني! لقد فكرت فيك طول هذه المدة وأنا بعيد عنك.

ثم ألصق فمه بأذنها وهمس بشئ وعيناه تضحكان. فابتعدت عنه فجأة وصاحت بصوت مرتفع:

– هذا مستحيل! لا يمكن أن آتي!

فعاد إلى الهمس:

– لا تخافي.. عندي شئ أريد أن أقوله لك. تعالي!

فهزت رأسها نفيا، ولكنها كانت تبتسم ابتسامة واضحة..

وحضر شقيق ماريانكا الصغير وهو يلهث ويصيح:

– ماريانكا. ماريانكا. أمي تريدك. حان وقت العشاء.

– إسبقني أنت يا عزيزي وسأحضر فورا.

وعندئذ نهض لوكاشكا واقفا ورفع قبعته للمجموعة وقال كمن يهتم بما يقول، وإن كان الفرح الطاغي يطل من عينيه:

– يظهر أنه يحسن بي أنا أيضا أن أعود إلى بيتي الآن.

ثم اختفي في أول منعطف. وكان الليل قد خيم تماما على القرية وأمست طرقاتها كلها مظلمة خالية، وأصوات الضحك تصل من بعيد إلى سمع لوكاشكا الذي جثم في المنعطف كالهر. ثم قفز في الظلام وأجتاز الطريق لا إلى بيته بل دار حول البيوت متجها نحو دار حامل العلم. وفي زقاق صغير مظلم افترش الأرض في ظل سياج قصير وراح يحدث نفسه منتشيا عن ماريانكا:

– ما أجملها من فتاة! إنها جديرة فعلا بأن تكون ابنة صاحب العلم! ولكن العفريتة تأبى أن تنقاد للمرح والهوى. ولكن سنرى! سنرى!

وسمع حفيف قدمي امرأة في الظلام. فأرهف أذنيه. ولم يلبث أن تبين ماريانكا تقبل في ذلك الاتجاه. فما إن دخلت الزقاق حتى نهض لوكاشكا

فجأة واقفا فارتاعت ثم لم تلبث أن ضحكت وقالت:

– أهو أنت يا شيطان! لقد أفزعتني! أهذا ما زعمته من أنك عائد إلى دارك في الطرف الآخر من القرية؟

فاضطرب لوكاشكا وطوقها بذراعه اليمنى ورفع ذقنها بيده الأخرى، وقال لها بصوت مرتجف:

– أقسم لك أني كنت أريد أن أقول لك شيئا!

تحشرج صوته من فرط الاضطراب فسكت. فقالت له:

– وما هذا الذي تريد أن تقوله لفتاة تحت جنح الليل؟ إن أمي تنتظرني، فاذهب إلى حبيبتك يانكا..

وخلصت نفسها من عناقه وأسرعت نحو البيت. فأسرع يجري بجوارها ويتوسل إليها أن تبقى معه قليلا. فخافت أن يكتشف أهل البيت وجوده. فوقفت بجوار سياج الدار وقالت له بدلال:

– ماذا تريد أن تقول لي يا ساهر الليالي؟

– أرجوك يا ماريانكا ألا تسخري بي! فلتذهب يانكا إلى الجحيم! قولي لي أنك تحبينني فأحبك وحدك واستغني عن الذهاب إلى الأخريات! إنك تعذبينني يا ماريانكا ولا تسمحين لي بشئ من الوصال!

وأطرقت الفتاة ولم تجب، وأخذت تعبث بأغصان السياج. وفجأة أربد وجه لوكاشكا وقال بحنق:

– لماذا تعذبينني؟ علام الانتظار؟ ألست أحبك؟ ألست امرأة؟

ولم تشب هدوء وجهماريانكا شائبة. ودفعته بعيدا عنها برفق:

– أنا فتاة ولكن لا حيلة لي فيما تريد! إن كنت تحبني حقا سأتزوجك. ولكن لا سبيل قبل الزواج إلى ما تريد!

فهتف لوكاشكا باستنكار:

– أحدثك عن الحب وتحدثينني عن الزواج؟

– أليس هذا طبيعيا؟

– إن الزواج موضوع آخر. إنه ليس في يدينا. امنحيني حبك يا عزيزتي ماريانكا. أحبك!

وخرج صوته رقيقا عذبا وقد تلاشى منه الغضب فتعلقت ماريانكا بعنقه فجأة وقبلت شفتيه قبلة حارة وهمست:

– يا لك من عزيز!

ثم ضمته إليها وارتجف جسدها اليانع، وفجأة نزعت نفسها من أحضانه وانفلتت داخلة فناء بيتها لا تلوي على شئ.

وتعقبتها توسلات الجندي القوقازي الحارة أن تتمهل قليلا حتى تسمع ما يود أن يقوله لها. ولكنها لم تستجب له وصاحت:

– إذهب وإلا افتضحنا! إن هذا النزيل اللعين يخرج أحيانا للتمشي في الفناء.

وهز لوكاشكا رأسه وقال لنفسه وهو منصرف:

– تريد أن تتزوجني! لا بأس بالزواج. ولكن لماذا لا تكتفي الليلة بالحب؟ لابد لي الليلة من حبيبة!

ولحق بنازركا في حانة يانكا وشربا معا شيئا من الخمر. ثم توجه إلى منزل امرأة اسمها دونيكا فقضى الليلة عندها.

الفصل الثالث

حدث ما توقعته الفتاة عندما قالت للفتى لوكاشكا أن النزيل اللعين قد يراهما. فقد كان أولينين فعلا يتمشى في الفناء عندما دخلت ماريانكا. فطرقت أذنيه إشارتها إلى "النزيل اللعين". وكان أولينين قد قضى الأمسية في صحبة العم بيروشكا في كوخه الجديد. وأمر فانيوشا فأحضر منضدة "وسيموفارا" للشاي وجانبا من الخمر، وعلى ضوء الشموع راح يصغي وهو يحتسي الشاي ويدخن السجائر إلى تلك الأقاصيص التي جعل الشيخ يرويها على مسامعه. والشمعة تذوب على مهل، وينعكس لهيبها الواهن على رأس الشيخ الحليق اللامع. وفراشات الليل تحوم حول الضوء حينا، وحول الأقداح والأواني على المنضدة حينا آخر، والليل من حولهما ساكن.

وفرغ المتسامران من احتساء خمس قوارير من خمر الجكير الوطني. وبيروشكا يقوم بدور سلطان الشراب، كلما فرغ قدحاهما أسرع فملأ القدحين، وقدم إلى أولينين قدحه، ثم بادر بشرب نخب مضيفه الشاب، ليستأنف بعدها الكلام ففي ذلاقة لا حد لها وتحدث الرجل عن حياة أهل القوقاز في سالف الأيام، وكيف كان أبوه العريض الكتفين المتين البنيان كفيلا أن يحمل على ظهره حملا يزن ثلاثة قناطير. يرفعه وحده مقعديا وينهض به دون أن يستعين بأحد وكيف كان يشرب جالونين من الجكير في جلسة واحدة. ثم انتقل إلى صدر شبابه هو. وكيف فاق في الصيد جميع

أقرانه. ومن ذلك أنه أصاب ذات صباح غزالين. ثم عرج إلى ذكريات غرامه وكيف كانت حبيبته تتسلل إلى النطاق لتلتقي به خلسة تحت جنح الليل. وكان يروي ذلك كله بأسلوب شيق عذب جعل أولينين لا يشعر بمرور الوقت.

وكان بيروشكا يهز رأسه ويقول لصاحبه الشاب:

– لم تر مني أيها الصديق إلا شبحا هزيلا. ولو أدركتني في شرخ شبابي لعرفت من أمري عجبا! بيروشكا اليوم واهن ذليل، أما في تلك الأيام فلم يكن صيت أحد أعلى من صيته بين جنود الحامية. من الذي لا يضارع جواده جواد؟ من الذي لا يضاهي سيفه سيف؟ من الذي لا يباري سمره ومجلس شرابه ومرحه مجلس؟ من الذي تتعلق به قلوب الفتيات والنساء؟ أنه بيروشكا! ففي ذلك الوقت كنت فتى بمعنى الكلمة، سكيرا ساطيا، أسطو على قطعان الخيل في مراعي الجبال. أما اليوم أيها الصديق فقد انقرض هذا الطراز بين أهل القوقاز. وأصبح النظر إليهم يرتد إلي حسيرا. فهم اليوم يرتدون الأحذية الحديثة، ويشربون بغير رشاقة. إنهم عار لآبائهم! فهم ضعاف هزال، استأنستهم المدنية والحكومة، وانقادوا لمواعظ المشايخ الذين ينهون عن أكل لحم الخنزير. ولكني لا أومن بهذه الفروق بين العشائر والعقائد. لأن الله خلق كل شئ متاعا للإنسان، وليس عليه في التمتع به جناح. انظر إلى حكمة الحيوان! ألست تراه يقيم بين أعواد القصب في أرض التتار أو أرضنا، وأينما حل في أرض فهي موطنه، وأي رزق ساقه الله إليه فهو طعامه! ولكن الأشياخ يقولون أن من فعل ذلك حل عليه عذاب جهنم جزاء وفاقا. وأحسب ذلك كله باطلا!

فسأله أولينين:

– وماذا تعني بالباطل؟

– أعني به جميع أقوال الوعاظ. أنا لا أصدقهم بل أصدق قول رجل من قادة الجيش ربطتني به في شبابي صداقة قوية، لأنه كان مثلي فتى ظريفا، محبا للحياة، حلو الشمائل. حسرتي عليه! لقد مات في إحدى المعارك. وكان من عادة هذا الصديق أن يؤكد لي أن جميع هذه الخزعبلات من اختراع الوعاظ أنفسهم! وكان حين يتحدث عن الموت يقول: "إنك حين تموت سينمو العشب والعوسج فوق قبرك. وذلك ختام كل شئ! لا تركن إلى شئ بعد نزولك حفرة في بطن الأرض!"

وفجأة سأله أولينين:

– كم بلغت من العمر يا بيروشكا؟

– علم ذلك عند الله!

– على وجه التقريب؟

– نحو السبعين. ليس أقل من ذلك. فإني لم أكن طفلا عندما اعتلت امرأة عرش بطرس الأكبر. وعلى هذا الأساس تستطيع أن تحسب مدة عمري. إنه لا يقل عن السبعين.

– حقا. ولكنك لم تزل فتى ظريفا.

– الحمد لله. فبنيتي لم تزل سليمة. وليس في حياتي ما يكدرها سوى تلك الحيزبون!

– ماذا فعلت بك؟

– أفسدت حياتي!

وصمت الرجل. وكان واضحا أنه لا يريد الإفصاح عن شئ.

ثم ابتسم فجأة وصاح بأولينين:

– أين ذهبت بك الظنون؟ اشرب!

وناول أولينين كأسا، واستطرد يروي ذكرياته:

– كنت وما زلت صيادا لا يشق له غبار، خبيرا بالحيوانات والطيور ومسالكها وتصرفاتها! ولديَ كلاب مدربة للطراد، وبندقيتان وشباك وباز للصيد. فإن كنت محبا للقنص حقا، ولست ممن يتشدقون بالرياضة وهم أهل كسل ووخامة، أخرجتك معي للصيد. وسترى أي رجل أنا! ما إن أرى أثرا على الأرض حتى أعرف الحيوان، وأين سيرقد، وأين سيرد الماء. فأختار لنفسي موقعا أكمن فيه طول الليل أرقب ظهور الحيوان. فهكذا أوثر أن أقضي الليل، لا قعيدا في الدار. فماذا يصنع الرجل في الدار؟ إنه لا يجني إلا معاقرة الخمر أو التعرض لثرثرة النساء. وصراخ الأطفال وذلك أقرب السبل إلى الجنون. أما التربص في العراء للصيد فأمر يجلو النفس ويشرح الصدر. ستنظر إلى السماء من فوق رأسك فترى حركات الكواكب وتعرف كم انقضى من الليل وكم بقي. وتصيخ لصمت الغابة فيحدثك كل حفيف فيها حديثا خاصا وأنت في انتظار حركات الحيوانات التي تخرج في موهن من الليل لترد الماء. وقد تسمع طلقة آتية من مكان بعيد فتأخذ في التفكير: ترى من صاحبها؟ هل هو صياد مثلك يقضي الليل في ترصد

حيوان؟ وهل كان أوفر منك حظا فظفر بفريسته؟ وهل أرادها أم أخطأها أم لم يصب منها مقتلا؟ أبغض شئ إلى نفسي أن يخطئ صياد المقتل من فريسته! إن الحيوان عندئذ يجر نفسه جرا بين اعواد القصب والدم ينزف من جراحه. وذلك إيذاء وتعذيب ينبغي أن تترفع عنهما.

وصب بيروشكا قدحين آخرين، ودلف إلى موضوع آخر:

– حدث ذات ليلة وأنا ساهر على ضفة نهر ترك إن رأيت مهدا طافيا يحمله تيار النهر على وجهه. فتدفقت الخواطر عندئذ على ذهني. ترى لمن هذا المهد؟ وخطر لي أن فريقا من جنودكم الملاعين انقضوا على إحدى القرى وفتكوا بمن فيها من النساء. وإن جنديا منهم تناول الطفل الرضيع من مهده فقبض على ساقه ثم طوح به فحطم رأسه على الجدار! لا تقل أنهم يتورعون عن ذلك! لقد تجرد الناس من الضمائر ولم يعد للخساسة البشرية حدود! ثم قذفوا بالمهد الخاوي إلى النهر! وبعد قليل مر بي حيوان صغير في طور الطفولة وقد غامت نفسي بالخواطر القاتمة التي أثارها مرأى المهد الخاوي. وبحركة آلية، بحكم العادة، رفعت بندقيتي وقلت: "باسم الأب والابن" وأوشكت أن أطلق النار على ذلك الحيوان الصغير. ولكن يدي ارتجفت، وسقطت البندقية من يدي وقلت: "اذهب يا صغيري إلى أمك!".

وصمت بيروشكا بعد ذلك صمتا طويلا. وقد أطرق يفكر. ونهض أولينين ليبسط ساقيه بعد طول الجلوس وخرج يتمشى في الفناء ويداه خلف ظهره. وتنبه بيروشكا من سبحات تفكيره فوجد الفراش يتهافت

على الشمعة ويكاد يحترق فصاح به:

– ما أحمقكن! إلى أين تطرن؟ ما أحمقكن!

ثم وقف وراح ينحي الفراش بأصابعه الغليظة عن النار.

– في فضاء الله سعة. فلماذا تلقين بأنفسكن إلى النار دون جميع الاتجاهات؟ لا تقتلن أنفسكن أيتها الحمقاوات!

واختلج صوته الأجش بالحنان حتى أوشكت أن تقطر من نبراته العبرات. ثم صب لنفسه خمرا وراح يعب وهو يحدث الفراش حينا ويحدث نفسه حينا آخر. وأولينين يذرع الفناء وحده.

وأدهش أولينين أن يسمع همسا عند باب الفناء. وبحركة لا إرادية كتم أنفاسه. فسمع ضحكة امرأة ثم صوت رجل. ثم صوت قبلة. وعندئذ تعمد أن يعبث بقدمه في الأرض كي يشعر العاشقان بوجوده، واجتاز الفناء إلى الجانب الآخر. وسمع باب السياج يقفل. ولكنه لمح بين أغصان السياج فتى يرتدي ثوبا جركسيا عرف فيه لوكاشكا. ثم مرت بأولينين فتاة طويلة القامة، تعصب رأسها بمنديل أبيض، وقد شمخت بأنفها، ونمت خطواتها عن اعتداد. فأتبعها أولينين بنظراته إلى أن دخلت الكوخ الشتوي، ورآها تخلع منديلها وتجلس، فاستولى عليه فجأة شعور بالوحشة والكآبة. وثارت في حنايا نفسه أشواق مبهمة وأكلت قلبه الغيرة والحسد.

وكان الظلام قد ساد بيوت القرية وخفتت جميع الأصوات. وانفردت بالليل أشجار الحور العالية ذات الظلال القاتمة. ونقيق الضفادع يصل خافتا رتيبا من المستنقعات البعيدة. ثم صاح ديك من فناء بيت قريب. ولمح أولينين

صديقه الشيخ وقد نام فوق ذراعه على المائدة. وبعد قليل شق الليل صوت جمع من الفتيان يغنون في مكان بعيد أغنية مرحة. فأفاق بيروشكا من غفوته، وقال:

– أتدري من ذا الذي يغني؟

فقال أولينين بسأم:

– من عساه يكون؟

إنه الفتى الشجاع لوكاشكا. يغني لأنه قتل رجلا من الأبركة ما أحمقه؟ هل في ذلك العمل، على ما فيه من شجاعة، ما يبهج؟

فسأله أولينين بفضول:

– ألم تقتل إنسانا قط يا بيروشكا؟

فرفع الرجل رأسه وحملق مليا في وجه أولينين وصاح:

– ما هذا السؤال أيها الشيطان؟ إن قتل نفس بشرية لأمر فظيع أيها الفتى! لا تستهن بالقاء مثل هذا السؤال!

ثم انتصب الشيخ واقفا وقال:

– طابت ليلتك أيها الصديق! لقد أصبت شبعي من طعامك وشرابك الآن هل آتي غدا لأصحبك إلى الصيد؟

– وهو كذلك.

– استيقظ مبكرا إذن. وإذا تأخرت في النوم فرضت عليك غرامة.

– سأستيقظ قبلك. لا تخف.

وانصرف الشيخ. وبعد قليل تبين أولينين صوت بيروشكا بين أصوات الشباب المنشدين يجلجل كالرعد، فتنهد، وهو يأوي إلى فراشه قائلا:

– يا لها من حياة!

* * *

لم يكذب بيروشكا حينما قال أنه كان أشجع الشجعان وفتى الفتيان في القرية كلها زمن شبابه. والواقع أنه كان أيام الجندية أجرأ جندي في الكتيبة. ولا تخلو يداه من دماء نفر من الأبركة والروس في ذلك العهد السحيق. ثم اعتزل خدمة الجيش العامل، وأقام بمفرده، لأن زوجته اعتنقت المسيحية منذ نحو عشرين سنة وهجرته دون أن يعقب منها نسلا، وتزوجت عريفا روسيا من أهل ديانتها الجديدة.

وفي تلك الفترة أحترف بيروشكا النهب والسلب وقطع الطريق في الجبال. فكان يسرق التتر والأبركة والروس أيضا. ووقع في يد رجال الأمن ودخل السجن مرتين. وقضى الشطر الأكبر من حياته يصطاد في الأحراش والغابات. وكم من أيام متعاقبة قضاها هناك وطعامه الخبز القفار، وشرابه ماء النهر أو الينبوع، لا يذوق الخمر. حتى إذا عاد من الصيد إلى القرية انفق ليله ونهاره في القصف والمرح والمجون والسكر.

وبعد أن فارق بيروشكا أولينين، اشترك مع لوكاشكا وصحبه في الغناء والشرب والقصف، ثم نام بضع ساعات، ولكنه استيقظ قبل أن ينبثق نور الفجر، وظل مستلقيا في فراشه يفكر في ذلك الشاب الذي تعرف إليه في

ليلته تلك. وقد طاب له ما تبينه في أولينين من سلامة طوية، وسذاجة. وكانت آية تلك السذاجة عنده أن أولينين لم يبخل عليه بكأس من الخمر بلا مقابل، وراق له أيضا أن يجد أولينين ظريفا محبا للحياة البسيطة، رغم ثرائه العريض. وساقه ذلك إلى التفكير في أمر الروس، وكيف يصلون إلى الثراء الواسع بهذه السهولة، ومع ذلك تظل نفوسهم بسيطة.. وعجب لأمرهم، كيف يظلون جهلاء بكل شئ عملي، رغم تعلمهم.. وانتقل من ذلك إلى التفكير في إمكانيات استغلال معرفته الجديدة بأولينين للحصول على منافع شتى!

وكان الكوخ الذي يقيم فيه العم بيروشكا رحيبا، حديث البنيان، بيد أن أثر افتقاره إلى عناية المرأة واضح كل الوضوح، فهو قذر كل القذارة، مضطرب غاية الاضطراب. وهذا نقيض ما اشتهر به القوقازيون من النظافة المفرطة. فعلى المنضدة سترته الملطخة بدم الدراج البري، وقد انتثرت هنا وهناك على المقاعد والأرائك أخفاف من الجلد وبندقية ورصاص، وخنجر وخرق ممزقة، وملابس مبتلة. وفي ركن من الأركان إناء به ماء قذر نقع فيه خف من الجلد وعلى الأرض شبكة صيد بها دراج ميت ودجاجة مربوطة من رجلها إلى المنضدة، تتمشى وتلتقط الحب من الأرض، وهناك أيضا جرة من الفخار مكسورة، وضعت فوق الموقد الخامد، وبها سائل في لون اللبن، وفوق قمة الموقد وقف صقر من صقور الصيد يصرخ ويحاول قطع الحبل الذي ربط به. وهو ينظر شدرا إلى الدجاجه. أما العم بيروشكا فكان مرتديا جلباب النوم، مضطجعا فوق سرير صغير ملاصق للموقد، وقد رفع رجليه، وأسند قدميه على جانب الموقد. وطفق يقلب يديه الغليظتين ويتحسس الخدوش

التي خلفها الصقر في يديه لأنه تعود حين يخرج للصيد أن يحمل الباز فوق يده من غير قفاز.

وبعد قليل طرق سمع بيروشكا صوت حاد يناديه من تحت النافذة فعرف فيه صوت الفتى لوكاشكا:

– أأنت هنا يا عماه؟

فصاح الشيخ المرح يجيبه:

– أجل. أنا هنا أنا هنا! أيها العزيز لوكاشكا أهلا بك. ما الذي يستطيعه عمك فيؤديه لك؟ أأنت في طريقك إلى النطاق؟

ولما سمع الصقر صياح سيده اشتد هياجه، وجعل يصفق بجناحيه كأنه يستحثه على الخروج به إلى الصيد والشمس في خدر أمها وكانت للوكاشكا منزلة خاصة في قلب الشيخ بيروشكا. ذلك أن صفات الفتى الشجاع من قوة وحمية وبأس، جعلت منه الشخص الوحيد الذي أفلت من احتقار الشيخ الشامل للجيل الجديد من القوقازيين.

ولم يكن تقدير الشيخ للوكاشكا خالصا بل كانت للمنفعة يد في ذلك التقدير. فلوكاشكا ووالدته من جيرة الشيخ الأقربين. وكان من عادتهما أن يتكرما على الشيخ في أحيان كثيرة بشئ من الخمر أو الزبد أو اللبن الرائب أو الفطير، وما إلى ذلك من الأشياء التي تصنعها يد المرأة في بيوت القوقاز، ولا تتيسر لشيخ أعزب يعيش بمفرده مثل بيروشكا. وكان بيروشكا على عادته يبرر لنفسه ذلك السخاء، ويزين لها تقبل الهدايا من الأصدقاء، قائلا بلهجته الظريفة:

– وما الضرر؟ إنهما يعطياني ما يفيض عن حاجتهما. وليس ذلك بلا مقابل. بل إني أستطيع في الحين بعد الحين أن أعطيهما شيئا من الطيور التي اصطادها. أو السمك. أو الخنازير الصغيرة.

لذا رأينا بيروشكا يخف إلى الفتى في بشاشة وترحاب:

– ما أسعدني برؤيتك. أعائد أنت الآن إلى النطاق؟

– لقد جئتك بالخمر التي وعدتك بها عندما كنا في النطاق.

فتهلل الشيخ وأخذ يدعو له بالخير. ثم أقبل على سرواله الفضفاض فتناوله من فوق الأرض وارتداه، ثم تناول صداره أيضا، وكان ملقى بجوار الموقد، ثم تمنطق بحزام عريض من الجلد حول خاصرته، وغسل يديه من ماء كان في جرة من الفخار، ثم جففهما في سرواله، وانثنى يصلح من أمر لحيته بمشط مكسور، ووقف بعد ذلك أمام لوكاشكا قائلا:

– إني على تمام التأهب!

وبحث لوكاشكا عن كأس مسح عنها الغبار بيده ثم ملأها للشيخ. فتناولها بيروشكا في جد ووقار، ورفعها فوق رأسه ليتلو نخبه:

– في صحتك يا لوكاشكا. وأسأل الله أن يحقق لك كل ما تتمنى وأن تغدو على الدوام بطلا موهوبا، وأن تظفر بوسام الصليب.

وأفرغ الكأس في جوفه، وعندئذ ملأ لوكاشكا الكأس وشرب نخب بيروشكا ثم وضع بقية الخمر على المنضدة. وبادر الشيخ إلى حجرة أخرى فأحضر سردينا مملحا في طبق أزرق اللون، وهو الطبق الوحيد الذي

يمتلكه، ووضعه أمام لوكاشكا في زهو وقال:

– بيتي لا يخلو والحمد لله من الطعام. والآن حدثني عن موسييف.

فأخذ لوكاشكا يقص على الشيخ كيف أن ذلك العريف أخذ منه بندقيته. وكان واضحا أن لوكاشكا يريد أن يستطلع رأى الشيخ في سلوك عريفه، فهز بيروشكا رأسه هزة العليم وقال:

– أترك له البندقية. فإنك إن لم تنزل له عنها لم يحسن الشهادة فيك، ولا تستطيع الحصول على المكافأة لقتلك الأبركة.

فظهر التردد على وجه الفتى القوقازي ثم قال:

– ولكن هذه المكافأة يقال يا عمي أنها ضئيلة ما دام الشخص غير مقيد في سجل الفرسان الرسميين، ثم إن البندقية التي طمع فيها العريف غالية الثمن، تساوي على الأقل ثمانين روبلا.

– وماذا لو كانت تساوي مائة؟ دعها له أيها الأبله. فقد أقدمت شخصيا على مثل تلك البلاهة في أيام شبابي. كان لي يومئذ جواد جميل. وطمع الضابط في الجواد، وقال لي بصراحة: "اعطني جوادك أجعلك حامل علم" وهي رتبة كما تعلم توازي رتبة ملازم، ويعامل صاحبها معاملة الضباط. ولكني كنت فتى أبله فلم أقبل هذه المساومة. ولم أظفر بشئ. وهأنذا كما ترى!

وتذكر لوكاشكا عندئذ مسألة أخرى فقال:

– وبهذه المناسبة أنا مضطر أيضا إلى شراء جواد، ويقال أنه لا يمكن

شراء جواد من الضفة الأخرى للنهر بأقل من خمسين روبلا وأمي لم تبع محصول الخمر بعد وليس لديها نقود.

فهز الشيخ بيروشكا رأسه باستخفاف وقال:

– فتى مثلك كالبغل طويل عريض يفكر في شراء جواد بالنقود؟ إننا في زمننا لم نكن نفكر في شئ من ذلك وعمك بيروشكا عندما كان في مثل سنك سرق بالفعل قطيعين كاملين من الجياد، سلبهما من قبائل النوغاي في الجبال، وساقهما بمفرده فاجتاز بهما نهر ترك، وكثيرا ما كنت أبيع الجواد الأصيل بنصف لتر أو أقل من الفودكا أو لقاء قفطان.

ففغر لوكاشكا فاه وسأله:

– ولماذا كنتم تبيعون الجياد الأصيلة بهذا الثمن البخس؟

فقال الشيخ بإزدراء:

– ما أغباك يا لوكاشكا! لماذا تظن أن الفتى منا كنا يسرق؟ إنه يسرق لكي تتوفر له الوسيلة للسخاء. كي يبعثر وينفق بلا حساب، ولا يقيم وزنا لقيمة ما في يده! أما أنت يا لوكاشكا فعلى شجاعتك وفتوتك لا أحسبك قد وصلت بعد إلى المستوى الذي تعرف به كيف تسرق الجياد؟

وصمت لوكاشكا. فلكزه بيروشكا قائلا:

– هيه! لماذا لا تتكلم؟

– وماذا عساي أقول لك يا عماه؟ يبدو أن جيلنا ليس على طراز جيلك وإننا لا نصلح لما كنتم تصلحون له في سننا.

فقلب بيروشكا شفتيه احتقارا وقال مقلدا طريقة لوكاشكا في الكلام:

– لسنا من طرازكم يا عم بيروشكا!! ما أغباك! أتظنني في مثل سنك كنت صعلوكا لصا فاتكا؟

– ماذا كنت إذن؟

– لو تدري! كان عمك بيروشكا في مثل سنك حمارا خائبا مثلك تماما يا ابن أخي العزيز! ولكني كنت شابا ودودا يزورني رجال العشائر مما وراء النهر، فأسقي الواحد منهم حتى تصرعه الخمر. وينام فأترك له فراشي.. وإذا ذهبت لزيارته في موطنه أخذت له معي هدية حسنة. أما أنتم الآن فلا تصلحون إلا لقزقزة لب عباد الشمس. عن قريب سأراكم أيها الفتيان تمضغون اللبان، يا حسرتي على فتيان القوقاز! ثم تعلمت بمرور الوقت حيل رجال العشائر مع جيادهم. وشيئا فشيئا تعلمت السرقة حتى صرت لصا هاما!

وساد الصمت بعدها برهة إلى أن قال لوكاشكا:

– الحق معك يا عماه. عود جيلنا واهن ولا نستطيع التغلب على الخوف. فهذا زميلنا نازركا وهو جندي شجاع طلب منه كرايخان أن نذهب إلى مراتع النوغاي لنحضر له جيادا يأخذها منا بثمن طيب. ولكن نزركا رفض أن يذهب. فهل ترى كان في استطاعتي أن أذهب بمفردي؟

– ولماذا تذهب بمفردك أيها الغر؟ هل نسيت عمك بيروشكا؟ هل تظن أن عودي واهن مثل عودك؟ أعطني جوادا اركبه وستراني أطير كالشيطان إلى بلاد النوغاي! وماذا أستفيد من مفاخرتك هذه؟ الأفضل من ذلك أن تدلني

على ما أستطيع أن أفعله ولا يغيبن عن بالك أن كرايخان ينتمي إلى عشيرة من عشائر النوغاي أيضا. ولذا لا يمكن الوثوق به.

فقطب بيروشكا حاجبيه وقال:

– ولماذا لا تثق بكرايخان؟ لأنه من سلالة الحجن؟ ليس هذا مبررا للشك فيه. فإن أهل عشيرته جميعا كانوا على الدوام من خيار الناس. وكان والده من أصدق أصدقائي. وسأخبرك كيف تطمئن إلى جانب كرايخان. أطلب منه أن يقسم لك ألا يخونك. وعندئذ لا ينالك منه سوء. ومع ذلك إذا خرجت معه إلى مكان قفر فمن حسن الفطنة أن يكون مسدسك محشوا على أهبة الانطلاق وفي متناول يدك في أية لحظة، لاسيما عندما تحين ساعة قسمة الجياد. فعند القسمة تحدث الخصومة دائما بين الشركاء. ولاسيما لصوص الجياد. وأذكر أن رجلا من النوغاي كاد يقتلني ذات مرة عندما طلبت منه عشرة روبلات ثمنا لحصان أنا لا أدعوك إلى سوء الظن فلا بأس بالثقة. ولكن إياك أن تنام من غير أن تكون بندقيتك تحت رأسك. وأنت مستعد لإطلاقها في أية لحظة.

وكان لوكاشكا يصغي لكلام الشيخ في اهتمام. ثم سأله:

– على فكرة يا عم. هل عندك شئ من العشب الذي يفتت الحصى؟

– كلا. ولكني أستطيع أن أقول لك كيف تحصل عليه.

– أرجوك أن تخبرني.

– أتعرف السلحفاة؟

– أعرفها طبعا!

– ابحث عن جحرها، واجعل حولها سياجا من الحصى وهي خارجة حتى لا تستطيع الدخول. وعندئذ ستأتي وتدور حوله عبثا ثم تذهب وتأتي في فمها بذلك العشب، فيفتت الحصى وتنفذ من السياج. فإذا ذهبت في اليوم التالي صباحا وجدت العشب المفتت للحصى بجوار الجزء المحطم من السياج.

– هل جربت هذا العشب يا عم؟

– لم أجربه بنفسي ولكن قوما آخرين جربوه وحدثوني بأمره. وسأقول لك تعويذة تضمن لك السلامة في بلاد النوغاي. إنها تعويذة قديمة. حمتني من القتل ومن الرصاص. وشرع العم بيروشكا ينشد أغنية قديمة بصوته الأجش، فلما فرغ منها صاح به لوكاشكا:

– أتعتقد حقا أن هذه التعويذة هي التي حمتك من القتل؟ إنما كان ذلك من قبيل الصدفة لا أكثر.

– أيها الشيطان! احفظ التعويذة، وثق إنها ستنفعك، أو فلتذهب بلا تعويذة. فإنك فتى شجاع.

– ها قد انبلج الصباح يا عم وآن أن أرحل. تعال لزيارتنا في النطاق يوما من الأيام.

– صحبتك السلامة. أما أنا فذاهب إلى طالب الحربية الثري. فقد وعدته بالخروج معه للصيد.

الفصل الرابع

انتقل لوكاشكا من بيت بيروشكا إلى داره. وكان ضباب الصباح قد أخذ ينتشر على وجه الأرض ويغلف القرية بردائه الأبيض الكثيف، فيحجب الماشية عن النظار، بيد أن صوت ثغائها كان يصل إلى الاسماع من كل جانب وقد بدأت تنشط وتتحرك في الأفنية والحظائر. والديكة تصر على التنبية إلى طلوع النهار بصيحاتها المتكررة.

وأخذ نور النهار يقوي، وقد بدأ أهل القرية ينشطون أيضا. ولم يتمكن لوكاشكا من تبين سياج بيته لأن الضباب كان قد لفه في ردائه من جميع الجهات. ولم يتضح له مدخل البيت وحظيرة البهائم المكشوفة إلى أن أصبح عن كثب منهما. وعندئذ طرق سمعه من الفناء المحجوب بالضباب صوت فأس تكسر خشبا ودخل لوكاشكا الكوخ وكانت والدته قد غادرت فراشها ووقفت أمام الموقد تلقي فيه بقطع الخشب. أما شقيقته الصغيرة فلم تكن قد استيقظت بعد. فلما رأته أمه سألته:

– هل أصبت يا لوكاشكا ما يكفيك من المرح واللهو؟ وأين قضيت ليلتك؟

فظهر الارتباك والتردد على الفتى، وتشاغل بمد يده إلى بندقيته وأخرجها من كيسها وراح يفحصها مدققا، وقال:

– قضيت الليلة في القرية.

وهزت أمه رأسها وانصرف لوكاشكا إلى العناية ببندقيته، فوضع جانبا من البارود في خزانتها، وتناول كيسا أخرج منه عددا من الخراطيش وبدأ يحشوها ثم يسد كلا منها برصاصة. وبعد أن يملأ كل خرطوشة يختبرها بأسنانه. وفجأة قال:

– قلت لك من قبل يا أمي أن حقائبي بحاجة إلى الإصلاح.

– أظنها قد أصلحت. فإن أختك البكماء كانت تصلح أمامي شيئا في الليلة الماضية. وهل أفهم من هذا أن موعد عودتك إلى النطاق قد أزف؟ إني لم أجلس إليك بعد.

فأجابها لوكاشكا وهو يعيد كيس البارود إلى مكانه:

– لابد لي من الرحيل متى أتممت استعدادي. وأين أختي البكماء؟

– أظنها في الفناء تكسر الخشب. وقد طال قلقها عليك سحابة الليل. وظلت تشير لي معبرة عن لهفتها على رؤيتك. فهل أناديها؟ لقد عرفت قصة الرجل الذي قتلته بجذافيرها.

– فليكن. دعيها تأتي. واحضري لي شيئا من الشحم لتشحيم سيفي.

وخرجت العجوز. وبعد هنيهة أقبلت شقيقة لوكاشكا البكماء، وهي أكبر منه بست سنوات.. ولولا العاهة وما فرضته على ملامحها من بلادة لنشأت أشبه الناس به.

وكانت البكماء ترتدي قميصا خشنا تكثر فيه الرقع المتباينة. حافية القدمين اللتين يكسوهما الوحل. وعلى رأسها منديل أزرق اللون أكل عليه

الدهر وشرب. أما عنقها وذراعاها فتكثر فيها العضلات البارزة حتى كأنها رجل لا امرأة. ومظهر ثيابها وسلوكها ينبئ أنها مارست أعمال الرجال الخشنة لا أعمال النساء وكانت الفتاة عندما دخلت تحمل حزمة كبيرة من الخشب القت بها بجوار الموقد، ثم توجهت إلى شقيقها فلمست كتفه، وقد أشرق وجهها كله بابتسامة حبور. وراحت تشير إليه إشارات متلاحقة بأصابعها ووجهها وجسمها كله. وأخوها منتبه لإشاراتها. ثم قال:

–كل هذا حق. إنك فتاة طيبة يا ستبكا. ولذا تستحقين مكافأة.

وأخرج من جيبه كعكتين قدمهما إليها، فاحتقن وجه البكماء من شدة السرور، وجعلت تصيح صياحا أشبه بصياح الطيور للتعبير عن سرورها. وجعلت تشير إشارات أخرى غريبة سريعة للغاية ولوكاشكا يبدو عليه أنه يفهم كل ما تعنيه فيومئ برأسه وعلى ثغره ابتسامة باهتة.

والحقيقة إن الفتاة كانت تقول له أنه من المستحسن أن يهدي فتيات القرية شيئا من ذلك الكعك فهن يستطبنه. ولاسيما وأن إحدى هؤلاء الفتيات تحبه الحب كله. وهذه الفتاة هي ماريانكا أفضلهن جميعا وقد رمزت إلى ماريانكا بإشارة سريعة إلى منزل تلك الفتاة. وعبرت عن حب ماريانكا بضغط يدها على صدرها ثم تقبيلها كأنها تعانق شخصا آخر. وفي هذه اللحظة عادت أمها إلى الحجرة ورأت إشارات الفتاة وفهمت ما تعنيه. فابتسمت الام وهزت رأسها. ثم قالت لابنها:

– لقد أخبرت أولنكا منذ بضعة أيام عن رغبتي في إتمام الخطبة. فلقي قولي عندها قبولا حسنا.

ولم يتكلم لوكاشكا، بل لاذ بالصمت برهة وهو ينظر إلى أمه ثم قال:

– ومتى تنوين أن تبيعي الخمر يا أماه؟ إني بحاجة إلى جواد.

ولم تسترح الأم لتعرض ابنها لشئون البيت فقالت:

– سأبيعها في الوقت المناسب. ولابد أولا من إعداد الدنان اللازمة لنقلها إلى السوق على عربة. وقد أعددت لك أشياء، فهل تأخذها معك إلى النطاق في حقيبة اقترضتها من الجيران أم تحب أن تضعها في كيسك؟

– وهو كذلك. ولا تنسي إذا حضر كرايخان أن ترسليه لمقابلتي في النطاق فلن أحصل على إجازة قبل مدة طويلة.

– سأرسله إليك. إنك لم تنم طول الليل. قضيت الليل ساهرا في القصف والمجون في حانة يانكا. فإني عندما استيقظت في الليل لأعنى بالماشية سمعت صوتك عاليا تغني.

ولم يجب لوكاشكا. بل خرج إلى الدهليز وحمل حقائبه على كتفه وتناول بندقيته ثم قال وهو على عتبة الباب:

– إلى اللقاء يا أمي. وأرجوك أن ترسلي إلي دنا صغيرا من خمرنا مع نازركا، فقد وعدت الزملاء بذلك.

– رعاك الله يا لوكاشكا. سأبعث إليك بطلبك. ولكن اسمع نصحي يا ولدي ولا تكن متهورا. واحرص على رضاء رؤسائك في العمل. وسأبيع أنا الخمر عما قريب. وأشتري لك الجواد الذي تختاره وكذلك سوف أخطب لك الفتاة..

فقطب حاجبيه وقال على استعجال:

– عظيم عظيم!

وعندئذ تدخلت أخته البكماء في الحديث وجعلت تشير إشارات سريعة فهم منها أنها تنتظر منه أن يقتل رجلا آخر من رجال الأعداء. فابتسم لوكاشكا لحبها الساذج، وحمل بندقيته وراء ظهره، ثم خرج من باب السياج في خفة ونشاط، وغاص في الضباب الكثيف. وظلت أمه واقفة تشيعه بنظراتها برهة. ثم دخلت الكوخ وراحت تعمل.

* * *

غادر لوكاشكا داره عائدا إلى النطاق في الوقت الذي كان فيه العم بيروشكا ينادي كلابه لتتبعه، ثم اتجه إلى منزل أولينين عن طريق المسالك الخلفية للقرية، لأنه شديدة التطير، ولذا فهو لا يحب أن يقابل أحدا قبل خروجه للصيد وعندما وصل كان أولينين لا يزال غارقا في النوم. أما خادمه فانيوشا فكان قد فتح عينيه ولكنه ظل مخلدا إلى فراشه. وإذا بالباب يفتح ويبرز منه العم بيروشكا وبندقيته على كتفه، وقد ارتدى ثياب الصيد كاملة وصاح بصوته الجهوري:

– النذير النذير! النفير النفير! لقد هجم علينا الحجن، هيا انهضا! جهز يا فانيوشا السيموفار! وأنت أيها السيد! انهض! فقد استيقظ الجميع! حتى الفتيات غادرن فراشهن. انظر من النافذة إلى هذه التي تذهب لتملأ جرتها بالماء!

وفتح أولينين عينيه وقفز من فراشه وهو يشعر بغاية النشاط والسرور،

كأنما صوت الشيخ فتح قلبه للحياة. وهتف:

– هيا أسرع يا فانيوشا هيا أسرع!

فقال الشيخ بازدراء:

– هذا هو خروجكم للصيد أيها الشبان، لقد فرغ الآخرون من تناول طعام الإفطار، وأنت ما زلت غارقا في النوم؟!

ونادى بعد ذلك كلبه فداعبه ثم صاح بصوت مرتفع كأنه في ساحة غاصة بالناس لا في حجرة صغيرة مع شخص واحد:

– هل بندقيتك على ما يرام؟

– إني مقر بذنبي. هيا يا فانيوشا هات البارود.

– هل أفرض عليك غرامة؟

فقال اولينين في دعابة وهو يرتدي حذاءه:

– أول ذنب مغتفر دائما.

فهز بيروشكا رأسه في استعلاء وقال:

– حسنا. سنشمل الذنب الأول بصفحنا. ولكن إن تكرر منك التأخر في النوم، حكمنا عليك بغرامة، بجالون من الخمر. إن نتيجة تأخرك أننا سوف لا نصادف إلا غزالا واحدا على الأكثر.

فقال أولينين وهو يقلد لهجة الشيخ:

– وإذا حالفنا الحظ والتقينا به كان أذكى منا وأشد دهاء فلا نستطيع

أن نوقعه في حبائلنا.

– أتحسب أنه يكفي أن تضحك وتتهكم لتحل مشكلاتك؟ الأفضل أيها الفتى أن نضع يدنا على الغزال أولا ثم ننصرف للحديث ما شئنا. والآن أسرع باستكمال استعدادك.

وكان بيروشكا قد اتجه إلى النافذة وأطل منها، فلم يلبث أن قال:

– ها هو ذا رب البيت قادم لمقابلتك. وقد ارتدى سترته الرسمية ليعرفك أنه ضابط.. آه من هؤلاء!

ودخل فانيوشا فأخبره أولينين أن حامل العلم "رب البيت" يريد مقابلته. ثم أردف فانيوشا باللغة الفرنسية قائلا:

– المال أساس كل شئ!

ودخل رب البيت. فإذا به يرتدي سترة جركسية ويحمل على كتفها علامة الضابط، ويلبس في قدميه حذاء انيقا لامعا وذلك أمر نادر الحدوث جدا بين أهل القوقاز. والواقع أن ايليا فاسيليفتش حامل العلم يعتبر من أهل القوقاز المتعلمين. سافر إلى روسيا نفسها واشتغل بالتدريس. وهو ميال بطبعه للظهور بمظهر النبلاء. بيد أن اللبيب يدرك بعد قليل أن مظهره المهذب المتأنق المتحضر يخفي وراءه ريفيا لا يختلف كثيرا عن العم بيروشكا. وأكبر دليل على ذلك يداه الغليظتان المشققتان من أثر العمل الشاق، ووجهه الذي لوحته الشمس.

وقد فطن أولينين إلى ذلك ودعاه للجلوس. أما بيروشكا فانحنى لحامل

العلم في أدب لا يخلو من تهكم. فرد عليه حامل العلم بهزة من رأسه تشي بالاستهانة.وكان حامل العلم قد ناهز الأربعين من عمره له لحية صغيرة، نحيف القوام، بيد أنه لا يخلو من مسحة من وسامة، وفي وجهه نضرة لا تدل على سنه. وكان واضحا أن الرجل احتفي بمظهره إذ قدم لمقابلة أولينين، لأنه خشي أن يظنه الشاب أحد عامة أهل القوقاز. فأحب أن يشعره منذ البداية بما له من أهمية خاصة. وبلهجة تنم عن الاستعلاء ابتسم رب البيت وهو يومئ برأسه إلى بيروشكا:

– أشهد أن هذا العجوز من أمهر الصيادين، وهو قدوتنا في كل شئ. ويسعدني أن أراك استطبت معرفته وصحبته.

فقال اولينين:

– لقد اتفقنا فعلا على أن نخرج اليوم للصيد.

– أنا مقدر تشوقك إلى الخروج إلى الصيد أيها السيد، ولكن لابد من بضع دقائق نسوي فيها ما بيننا من أمور معلقة.

– ما الذي أستطيعه لخدمتك؟

فتنحنح رب البيت وقال:

– أنت سيد مهذب. وأنا أيضا رجل من فئة الضباط، ولذا أعتقد أننا سنتفاهم بسهولة كعادة السادة المهذبين أما عن امرأتي فأرجو ألا يعلق بنفسك شئ بسبب صعوبة التفاهم معها. فهي عجوز حمقاء كسائر نساء عشيرتنا. وأنا لا مانع عندي من تأجير هذا المسكن نظير ستة روبلات في

الشهر. هذا ما وضعته في ذهني لو طلب مني أركان حرب الكتيبة تأجيره. أما وأنت الذي تريده لنفسك...

وفهم أولينين أن الرجل يريد أن يؤجر الكوخ له بستة روبلات. فبادر بالموافقة في فرح. ثم قدم إلى رب البيت قدحا من الشاي، فرفضه حامل العلم متعللا بالتقاليد الدينية التي تحرم عليه استخدام قدح رجل غريب عن عشيرته. ثم أسرع فأحضر قدحه الخاص من الكوخ، وجعل يشرب الشاي وهو ما يزال ساخنا جدا ليفرغ منه بسرعة قال:

– لا أريد أن أعوقك عن الخروج للصيد. والحقيقة أني مشغوف بالصيد أيضا. ولكني أصيد السمك في الغالب. وبهذه المناسبة أدعوك لزيارتنا في البيت بين حين وآخر لتشرب من خمرنا على حسب عادات عشيرتنا.

وانحنى حامل العلم ثم صافح أولينين وانصرف. ثم طرق صوته سمع أولينين وهو يأمر وينهى بين أهل بيته في حزم. وبعد قليل أبصره من النافذة يجتاز الفناء في ثياب قذرة مهلهلة، وقد شمر سرواله إلى ركبته، وحمل على كتفه شبكة.

وأفرغ العم بيروشكا قدح الشاي في جوفه ثم قال:

– يا له من لص! هل تنوي حقا أن تعطيه ستة روبلات في الشهر أجرا لهذا المسكن؟ إن هذا غير معقول! إن أفضل كوخ في القرية لا يزيد على روبلين في الشهر. بل إني مستعد شخصيا أن أؤجر لك كوخي بثلاثة روبلات.

– شكرا لك. إني أفضل البقاء حيث أنا!

وقبل أن تبلغ الساعة الثامنة خرج اولينين مع بيروشكا بعد أن احتسيا قدحا من الفودكا وأصابا شيئا من الطعام يتقويان به على عناء الطريق. وعند الباب صادفا عربة يجرها ثوران. وكانت ماريانكا هي التي تقود العربة فتظاهر الشيخ أنه يريد أن يمسك بها وصاح:

– ما أجملك!

فرفعت الفتاة العصا كأنها تهم أن تضربه. ثم لمعت عيناها ببريق السرور والمرح. فأحس اولينين بالبشر يفيض من قلبه ويملأ الكون كله من حوله ورن من ورائهما صوت ماريانكا تستحث الثيران على المسير. ثم شرع بيروشكا في الكلام كعادته وهما يجتازان المراعي والحقول. وكان حديثه ينصب على حامل العلم الذي يمقته من كل قلبه. فسأله اولينين:

– لماذا أنت حانق عليه هكذا؟

– حانق عليه لأنه وغد دنئ. بخيل. وأنا لا أحب الأشحاء. إنه يجمع المال ويكدسه، ولكنه سيترك كل ما يملك ولا يأخذ معه شيئا إلى القبر. لماذا يتعب نفسه ويجمع المال من حرام وحلال؟ لقد خاصم أخاه أمام المحاكم ونزع منه ملكية بستان. إنه يحترف كتابة المواثيق. ويكتبها بخبث ودهاء. ومواطنونا هنا أميون، فيخدعهم ويغشهم. ولماذا كل ذلك؟ إنه لم يرزق إلا بغلام واحد وبهذه الفتاة.

– لعله يجمع المال لابنته!

– أية إبنة؟ إن الفتاة حلوة وخطابها كثيرون.. ووالدها رجل خبيث، بلغ من خبثه أنه لا يريد أن يزوجها إلا من رجل موسر. ويطلب لها مهرا ضخما. ولما طلبها لوكاشكا الفتى الوسيم الشجاع الذي قتل الأبركة وهو مولع بالفتاة منذ زمن طويل، رفض والدها أن يزوجها إياه متعللا بصغر سن الفتاة. ولكني أعلم أنه ينتظر صفقة أدسم.

– كيف تقول ذلك؟ إني كنت أتمشى ليلة أمس في فناء الكوخ فرأيت الفتاة مع فتى قوقازي يتبادلان القبلات.

فصاح الشيخ:

– لا أصدقك!

– بل أقسم لك أن هذا صحيح!

فصمت الشيخ قليلا ثم قال:

– يا لها من عفريتة! ولكن من هو هذا الشاب المحظوظ؟

– لم أستطع أن أتبين شكله.

– هل كانت قبعته بيضاء؟

– نعم.

– وسترته؟ هل كانت حمراء؟

– نعم.

– وطوله؟

– أطول مني بقليل!

– الملعون! إنه هو!

ثم انفجر بيروشكا ضاحكا وهو يقفز سرورا وصاح:

– هو بعينه لوكاشكا! لقد شب هذا الفتى على منوالي. لقد كنت في أيام شبابي زير نساء! كانت حبيبتي تنام في حجرة واحدة مع أمها وامرأة أخيها، ولكني كنت أعرف كيف أتسلل إليها كالثعبان وأختلي بها. وكانت تنام على أريكة تحت النافذة مباشرة. فكنت أتسلق فوق كتف صديق لي وأدخل من النافذة كالقط وأهبط إلى الأريكة. وكانت تحفظ لي تحت الأريكة القشدة والفاكهة وطيبات المآكل لتتحفني بها كل ليلة. ولم تكن هذه الفتاة حبيبتي الوحيدة. وهكذا تكون الحياة!

– والآن ماذا نصنع؟

– سنتتبع الكلب إلى مواطن الدراج وتتربص إلى أن يحط فوق شجرة فنطلق عليه النار. وأنت أيها الفتى لماذا لا تجرب حظك مع ماريانكا؟

– ألست تبادل لوكاشكا الحب؟

– إن قلوب الفتيات يا بني غريبة الأطوار. والآن صه. حتى لا تسمع الفريسة صوتنا وتهرب..

وسار الاثنان في طريقهما صامتين.

الفصل الخامس

شمل الهدوء كل شيء، وكان الرجلان يسيران جنبا إلى جنب والمنظر يتغير حولهما مع كل خطوة، وظلت الأصوات الصادرة من القرية البعيدة تخف في سمعهما شيئا فشيئا إلى أن انقطعت هذه الأصوات تمام الانقطاع، فلم يعد يطرق آذانهما إلا وسوسة الريح في الكلأ، أو حفيف الأعشاب والشجيرات، كلما جرت الكلاب من تحتها. وكانت الطيور تصوت وتتبادل النداء بين الحين والحين.

وكان أولينين يعلم أن الخطر لا تخلو منه الغابة، لأن من عادة الابركة أن يكمنوا في مثل تلك المواضيع المعتمة. بيد أنه كان يعلم كذلك أن البندقية وقاء عظيم القيمة لكل من يسير في الغابة على قدميه ولم يكن إحساسه هذا عن جبن، بل لأنه كان يشعر بشعور غيره من الناس الذين كانوا حقيقيين بالخوف لو أنهم كانوا في موضعه ذاك. وأخذ يتفحص بناظرته الغابة التي يلفها الضباب الرطب، وينصت إلى تلك الأصوات البليلة الخافتة التي تنبعث في جنباتها، وقد أرهف أذنيه وتوفرت حواسه، وتقبضت أصابعه على بندقيته وأحس لذلك كله بنوع من النشاط اللذيذ.

وكان بيروشكا يتقدمه في السير. ويقف بين الفينة والفينة وينعم النظر مدققا في كل بركة ماء وردها حيوان للشرب، وترك عندها آثار أقدامه عند الورود والصدور وينبه اولينين إلى تلك الآثار في كلمات قليلة خافتة شأن من يلقي دروسا عملية، وقد اكتسى وجهه بطابع من الجد غير مألوف فيه

حين يكون في القرية. والواقع أن هذا الرجل لا يهتم بشئ ويأخذه مأخذ الجد والرهبة عدا الصيد وكان الطريق في وسط الغابة واضحا، جعل لمرور العربات. ولكن العربات فيما يظهر كفت عن سلوك هذا الطريق منذ زمن بعيد، فغطى الأرض عشب طويل كثيف. وكانت الأشجار على جانبي الطريق ضخمة ملتفة، تعلوها نباتات كثيرة متسلقة، فصار من المستحيل أن يخترق النظر الفاف الأشجار التي عششت على جذع كل منها الكروم البرية، وملأ الحسك الداكن ما تحت الأشجار. وأما الممرات الصغيرة التي قد توجد هنا وهناك في الغابة فتكسوها شجيرات التوت وأعواد القصب ذات الزغب. وبين الحين والحين تبدو آثار أقدام الدراج.

وكان اولينين لا ينتهي عجبه لقوة الطبيعة النامية في هذه الغابة، لأنه لم يكن شاهد مثلها من قبل. فأتمت هذه الغابة الصورة الرائعة التي ارتسمت في مخيلته لبلاد القوقاز الساحرة. فهذه الغابة بما فيها من حياة قوية فطرية نامية، وما يكمن في ألفافها من الخطر، وبيروشكا العجوز بجده الذي يناقض شخصيته الهازلة، وماريانكا بقدها الممشوق اللدن الفوار بالحياة، والجبال الشامخة التي تتوجها الثلوج، كل ذلك يبدو كأنه حلم من الأحلام.

وفجأة همس له بيروشكا يلتفت نحوه ويرخي قبعته على وجهه:

– ها هو دراج قد استقر على الشجرة. إفعل كما أفعل.

ثم جثم على الأرض وأخذ يزحف على أربع وهو يقول:

– إنه يكره سحنة البشر.

وبعد قليل وقف الشيخ فوقف اولينين وأخذ بيروشكا يفحص إحدى الأشجار، وكان فوقها دراج كبير ينق في وجه كلب من كلاب الصيد ينبح بشراسة وما إن ثبتت عين اولينين على الطائر حتى سمع طلقة بندقية مدوية خرجت من بندقية بيروشكا الكبيرة ورفرف الدراج بجناحيه وقد تطاير بعض ريشه، ولكنه لم يلبث أن سقط على الأرض. وثار دراج آخر فرفع اولينين بندقيته وصوبها وأطلق النار، فحوم الدراج في الجو لحظة ثم وقع على الأرض. فصاح الشيخ وهو يضحك:

– أحسنت! لقد أصبته في جناحه.

والتقطا الدراجين واستأنفا سيرهما. وقد تفتحت نفس اولينين بتأثير الرياضة والثناء، فانطلق يتحدث إلى الشيخ ويبدي له ملاحظاته على كل شئ يمران به. ثم قاطعه بيروشكا قائلا:

– هيا بنا من هنا. لأني شاهدت أمس آثار الغزلان في هذا المكان.

وانعطفا داخلين بين الشجر. وبعد نحو ثلاثمائة خطوة دخلا ممرا تكتنفه أعواد القصب، وقد غطى الماء جزءا منه. وكان بيروشكا الصياد العجوز المتمرس بالغابة أسبق من اولينين في حركاته وتسلله. وسرعان ما وقف بيروشكا أمامه بنحو عشرين خطوة وطأطأ رأسه وجعل يشير بذراعه إليه. فلحق به اولينين. وتبين أن بيروشكا كان يشير إلى آثار أقدام.

– أترى هذا؟

– إنها فيما أرى آثار أقدام رجل.

وتذكر اولينين على الفور ذلك المحارب من الأبركة الذي قتله لوكاشكا وكيف أنه ولا شك موضع اهتمام عشيرته للأخذ بثأره. ولاحظ أيضا الأسلوب المتوجس الذي يسير به زميله الشيخ. فخاف أن يفصح له عن قلقه بالسؤال، وظل نهبا للشك. هل هذا الحذر من جانب الشيخ ناجم عن توقع الخطر أم هو مرحلة من مراحل عملية الصيد في حد ذاتها.

وبعد قليل قال له الشيخ:

– أوه! إنها آثار أقدامي أنا عندما كنت هنا بالأمس!

وانطلق الشيخ في طريقه ولازمه اولينين. فوصلا بعد قليل إلى وهدة منخفضة من الأرض بعد عشرين خطوة تقريبا. فإذا شجرة كمثرى كبيرة، ظليلة، وعلى الأرض السوداء من تحتها بعر حيوانات لم يزل نديا، وكانت الكروم البرية تحيط بذلك الموضع من جميع نواحيه، فهو خير ملاذ يخلد إليه ظبي. وفحص الشيخ البعر ثم قال وهو يتحسر:

– لقد كان الغزال هنا هذا الصباح.

وفجأة دوت فرقعة مخيفة على مسافة خطوات قليلة منهما، ففزعا، وبحركة سريعة أمسك كل منهما ببندقيته. ولكن الأشجار الكثيفة حالت بينهما وبين الرؤية، وسمعا صوت تكسر الغصون. ثم تلا ذلك صوت حوافر تجري بسرعة وتتلاشى شيئا فشيئا وشعر اولينين بقلبه يكاد يقفز من موضعه، وراح ينظر بلا جدوى في النباتات الداكنة الخضرة من حوله. والتفت إلى الشيخ بيروشكا فوجده ساكنا لا يتحرك وبندقيته لا تزال على كتفه، وقد ومضت عيناه ببريق غريب وكشر عن أنيابه كأنه تمثال الحنق. ثم غمغم:

– أيل ضخم ذو قرون!

ثم رمى بندقيته على الأرض وأخذ يجذب شعر لحيته ويسب نفسه:

– ما أغباني إنه خنزير لقد كان يقف هنا. وخرج عندما اقتربنا من الممر. كان يجب أن نأتي من الممر لنحصره.

وكان الليل قد اقترب وسادت غبشة الغسق عندما عاد اولينين والشيخ إلى القرية وقد نال منهما الجوع والتعب. ومع ذلك كان يشعر أن النشاط يدب في جميع أوصاله.وكان فانيوشا قد أعد طعام العشاء، فأكل وبيروشكا. وشربا من الخمر ما أشاع في نفسيهما المرح. وبعد العشاء جلسا في مدخل الكوخ، وطفق الشيخ يسرد عليه أقاصيص حياته ومغامراته التي لا نهاية لها، سواء في الصيد أو الحب، وحياة الاستهتار التي كان يحياها ومرت من أمامهما في الفناء ماريانكا رائحة وغادية بين الحظيرة والدار والقبو، وعليها قميصها الوردي الذي يشي بجمال قدها ورشاقتها العذرية الفياضة بالحيوية.

* * *

وما إن حل اليوم الثاني حتى كان اولينين على أحر من الجمر للخروج إلى الصيد. وخرج في هذه المرة وحده، فذهب إلى الكمان الذي وجد فيه هو والشيخ بالأمس آثار الايل ذي القرون. وأثار كلبه في الطريق دراجين ظفر بهما بطلقتين. ثم أخذت الدراريج تستيقظ من تلقاء نفسها. فأطلق اولينين ببندقيته أكثر من عشر مرات وظفر بخمسة دراريج. وجعل يجوس خلال الشجر والعوسج ليلتقط صيده فأصابه من ذلك جهد شديد وتقصد منه العرق.

وكان أشق شئ عليه ذلك البعوض الذي كان يتكاثر حوله كلما وقف يحشو بندقيته، وكان كم سترته الجركسية الواسع ينفعه في طرد ذلك البعوض وأمر كلبه أن يكف عن إثارة الدراج لأن الدراج ليس طلبته الحقيقية في هذا اليوم. ولكن الكلب العنيد لم يكف عن آثارة الدراج كلما وقع على آثاره وهما في الطريق. فاضطر اولينين إلى قتل دراجين آخرين. وكان الوقت قرب الظهر عندما اقترب من الموضع الذي ينشده تحت شجرة الكمثرى الوارفة الظلال.

وكان النهار مشرقا غاية الاشراق، والسكون مخيما على أرجاء الغابة، والحر شديدا، فتبددت الرطوبة، وازدادت هجمات الجيوش الكثيفة من البعوض التي جعلت تحط على وجهه وظهره وذراعيه وكست كلبه الأسود اللون بحلة رمادية. وكانت الحشرات اللعينة تخترق بحمتها سترته وقميصه وتنغرس في لحمه الأبيض. فبدأ يساوره الشك في اعتبار تلك القرية القوقازية جنة الله في أرضه. وتصور الإقامة في هذه القرية في شهور الصيف وكيف تكون جحيما يستحيل عليه الإقامة فيه. وفكر في الرجوع من حيث أتى لولا أنه خجل من الرجوع عن عزم اعتزمه. ولاسيما حين تذكر أن أناسا من البشر يعيشون في هذه المواضع وفي تلك الظروف عينها طول حياتهم ويروضون أنفسهم على احتمال تلك المشاق.

وأثار هذا عزيمته القوية، فقرر الصمود والتجلد، حتى أنه استسلم للبعوض ينهشه كيف يشاء وقد ألغى إرادته ومقاومته فأدهشه بعد قليل من الوقت أن ذلك الاستسلام ينطوي على متعة حقيقية. وإن هذه الغابة لا يكمل معناها وسحرها إلا بهذا البعوض الكثير المنتشر، وهذه الرطوبة

والحرارة والعرق المتفصد. فهذه الجيوش الجرارة من البعوض تتلاءم تمام الملاءمة مع هذه الحياة النباتية الخضراء اليانعة المسرفة في النمو، ومع تلك الأسراب من الطيور والحيوانات الوحشية التي تملأ جنبات تلك الغابة، ومع هذه الروائح التي تملأ الأنف من أوراق الشجر، وأعواد العشب والأزهار، ومن تلك الجداول التي تتشعب من نهر ترك في جميع الاتجاهات، ومن ثم بدأ يحس بأن الذي ضاق به منذ قليل إنما هو في مجموعه أمر مقبول.

وأخذ اولينين يجوس خلال المكان الذي كان فيه الايل بالأمس فلم يجد له أثرا. وكان الكلال قد أخذ منه، والشمس قد قاربت الرأس فوق الغابة وراحت تصب أشعتها عليه كلما خرج إلى ممر. والدراريج التي علقها في حزامه ثقل عليه وزنها، فأحس بألم في خاصرته. فرقد في مضجع الايل وراح ينظر في آثار الحياة الطبيعية الهادئة من حوله، وسرعان ما شمله احساس بالطمأنينة والسكينة، فكأنما خلا ذهنه من جميع الأفكار، وأقفرت نفسه من جميع الاطماع والرغبات. وسرت في سريرته موجة من الابتهاج الغامض الذي لا يعرف له سببا خاصا، وإنما فاضت نفسه بمحبة شاملة لجميع الكائنات، وبلغ ذروة هذه السبحة الروحية فأخذ يكلم نفسه على عادته في خلوته منذ صباه:

إني ها هنا كائن متميز تمام التميز عن جميع الكائنات الأخرى وهأنذا أرقد وحدي حيث كان يقيم من قبل ايل ذو قرون. ولعل إنسانا لم يجلس هذا المجلس من قبل أو طاف بخاطره أن يكون هاهنا. وها هي الأشجار من حولي عتيقة سامقة، صغيرة باسقة والكروم البرية تتسلقها وقد تدلت منها عناقيدها. والدراريج تروح وتغدو وتتدافع. ولعل هذه الدراريج المسكينة تشم الآن رائحة بنات جنسها التي لقيت مصرعها على يدي.

وعندئذ تحسس اولينين فرائسه، ثم مسح الدم الذي لوث يده في سترته. وتجمع البعوض وأخذ يطن حول وجهه وفوق رأسه في سحب كثيفة، فغمغم:

– وحتى هذا البعوض الذي يبلغ عدده الألوف والملايين، كل بعوضة منها تطن معبرة عن شئ في نفسها. إن كل بعوضة منها مثل ديمتري اولينين، تتميز عن كل بعوضة سواها، مثلما اتميز أنا عن كل إنسان سواي. ولعل من بين هذا البعوض قادة يهيبون به: "ها هو انسان أبله ساقه الله إلينا لنأكله!".

وخامر اولينين شعور بأنه ليس كالمفروض فيه، شريفا من نبلاء الروس، وعضوا من أعضاء المجتمع الراقي في موسكو، وعلى صلة بهذا الشخص من الوجوه والأقطاب أو ذاك، وإنما هو في الواقع بعوضة مثل سائر ذلك البعوض الذي يعيش الآن من حوله:

– إني سأقضي في الحياة مدة من الزمن ثم امضي بغير رجعة مثلي مثل ذلك البعوض. أو مثل العم بيروشكا. وقد صدق الشيخ حين قال أنني بعد أن أموت سوف ينمو العشب والكلأ فوق قبري وهذا ختام كل شئ! ولكن ماذا في ذلك، ولم لا ينمو الكلأ فوق حفرتي بعد أن أموت؟ ليكن ذلك. أما الآن فإني على قيد الحياة فينبغي ألا أضيع فرصة الحياة. ينبغي أن أكون سعيدا ما استطعت. فالسعادة هي غاية الغايات عند كل حي. أجل سأموت يوما وينمو الكلأ فوق حفرتي ثم ينتهي كل شئ. ولكني لابد أن أحيا قبل أن أموت حياة حافلة على خير وجه مستطاع. ولكن كيف السبيل إلى ذلك؟ هذا هو السؤال!

وأخذ اولينين يسترجع صور حياته حتى ذلك اليوم، فشعر بالسخط والاستياء من نفسه. وبدا لعينيه أنه كان جشعا غاية الجشع في سلوكه، يفرط في حب نفسه وتفضيلها على الناس.

وقلب نظره حينا بين أوراق الشجر الخضراء الداكنة، وغمرت السكينة نفسه، فأثار فيه ذلك رغبة للسؤال:

– ما هو سر سعادتي في هذه اللحظة؟ وماذا كان هدف حياتي من قبل؟ كنت أعيش لنفسي وأتلهف على إشباع مطامعها ورغباتها ولكني لم أحقق لها شيئا تتمجد به أو تسعد. مع أنني الآن، في هذه اللحظة، لا تساورني الرغبة في أي شئ، وليست بي حاجة إلى شئ كي تتم سعادتي.

وكأنما غمر وجدانه ضوء جديد ثاقب على حين غرة فقال:

– ما أنا فيه الآن هو السعادة الحقيقية ولا شك. إن السعادة الحقة في أن يحيا المرء لسواه لا لنفسه. هذه حقيقة لا ريب فيها. إن الشوق إلى السعادة شوق أصيل في قلب كل إنسان. فالسعادة هي الهدف المشروع للحياة. ولكن هذا الهدف إذا جرب الإنسان تحقيقه بالسعي إلى المنفعة الشخصية وإشباع مطامع الثروة والجاه والنفوذ والترب والعشق، فإنه يتعرض لما يحول دون تحقيق هذه الرغبات، فينجم عن ذلك شقاء كبير. لماذا؟ لأن هذه الرغبات والمطامع ليست هي الأهداف الحقيقية الشرعية للإنسان. أما الغاية الوحيدة الشرعية للإنسان فهي ان يعيش لغيره لا لنفسه. وهذا هو لباب المسألة.

ووجد نفسه مدفوعا للعودة إلى البيت كي يطيل التفكير في هذا

الاعتبار الجديد ثم يبدأ صفحة جديدة من عمره يفتش فيها عن الفرص لفعل الخير. فنهض وتناول بندقيته وخرج من الدغل إلى الممر، فإذا بقرص الشمس وقد مال عن كبد السماء وتواري خلف رؤوس الأشجار، فسرت في الجو برودة شديدة، وكأنما قد تغير المكان، بعد أن تلبدت الغيوم في السماء وتسربلت الطبيعة بلون رمادي مكفهر. فتلاشى الشعور بالسكينة والطمأنينة وحل محل ذلك التوجس والخوف، وبدأ يتوهم جموع الابركة وراء كل شجرة من أشجار الغابة، وهاله أن يشغل بالتفكير في كيفية الدفاع عن نفسه، وأنه قد يضطر اضطرارا إلى قتل عدوه. أو لعله يخر صريعا بيد ذلك العدو.

وأسلمته هذه الفكرة إلى موضوع الله والحياة الأخرى. وكان قد ترك ذلك الموضوع منذ زمن بعيد، فاكتأب وقال يحدث نفسه:

– أمن الخير إن يقضي المرء حياته في العمل لنفسه، وهو يعلم أن تلك النفس مقضي عليها بالموت أن عاجلا أو آجلا، فالمنايا راصدات للفتى حيث سلك؟ أي جدوى في أن يعيش إنسان ويموت من غير أن يسدي إلى أحد نفعا أو يقدم للناس جميلا ومعروفا؟

وتبددت من نفسه كل فكرة تتعلق بالصيد، وهو يسلك الطريق الذي خيل إليه أنه يفضي به إلى القرية. وبعد أن هام على وجهه طويلا، وجد مجرى ماء يأخذ من نهر ترك فقرر أن يتتبع ذلك المجرى حتى لا يضل.

وبعد أن سار طويلا بحذاء القناة، سمع صوت أعواد القصب تتقصف من حوله فجأة فارتجفت فرائصه ورفع بندقيته بحركة لا إرادية. ثم لم يلبث أن تقصد جبينه بعرق الخجل، عندما اكتشف أن ذلك الصوت المخيف لم

يكن إلا حركة كلبه وهو يطارد بعض الحيوانات. وألقى الحيوان بنفسه في القناة وجعل يعب منها.

ومشى اولينين في أعقاب كلبه وفي ظنه أنه سيصل بعد قليل إلى القرية. ولكن جميع الملابسات من حوله كانت تنذر بخطر غامض، لأن هبوب الرياح فوق قمم الأشجار أخذ يشتد، وجوارح الطير تحوم في الجو فوق أعشاشها مروعة، ترسل صيحات حادة ولم تلبث المزروعات ان قلت شيئا فشيئا، وحلت أعواد القصب الملتفة محل الأشجار، وكثر ظهور الأرض الرملية الجرداء. وكل شئ متسربل بجهامة واكفهرار يبعثان الوجوم في النفس، وتحسس وراء ظهره دراريجة فوجدها قد نقصت واحدا سقط من حزامه، ولم يعثر له على أثر، ويظهر أنه فقده منذ مسافة طويلة. فزاد ذلك من شعوره بالوجوم والفزع، فجعل يتضرع إلى الله ألا يكون هذا اليوم ختام حياته، لأنه لا يريد أن يموت قبل أن ينفذ خطة حياته الجديدة وهي الحياة لغيره وعمل الخير للناس.

وهكذا استولت عليه الرغبة في الحياة، ليعيشها في سبيل هدف عظيم يبذل في سبيله نفسه.

الفصل السادس

وفجأة أضاء شعاع قوى ظلمات نفسه، كما تبدد أشعة الشمس ظلمات الوجود، وطرق أذنه حديث باللسان الروسي، وسمع هدير ماء نهر ترك الذي ينساب في جريان سريع. ولم يلبث أن رأى على قيد خطوات منه صفحة ذلك النهر القائمة ورمال شاطئيه والبطاح المترامية، وبرج المراقبة في النطاق، وقد برز فوق مستوى الماء. ثم من وراء ذلك الجبال المترامية وقد انعكس عليها قرص الشمس الأحمر الذي تكتنفه السحب ولمح عند النطاق وعلى برج المراقبة جماعة من جنود القوقاز. ولأول وهلة استرعى نظره لوكاشكا بقوامه المتين.

ولسبب غير معروف شعر اولينين مرة أخرى بالسعادة تغمر جوانب نفسه، وقد أدرك أن قدميه قادتاه إلى نقطة الحراسة على نهر ترك، قبالة قرية هادئة تجثم على الضفة الأخرى للنهر وحث اولينين الخطى مقتربا من جنود القوقاز، ودخل عليهم كوخهم المشيد باللبن، بيد أن هؤلاء القوقازيين لم يحفلوا به. ولعل ذلك لأنه كان يدخن سيجارة، وهم يدخنون الغليون، مما زاد في بون الاختلاف بينه وبينهم. ثم أنهم كانوا مشغولين عنه في هذا المساء بموضوع له أهميته لديهم. إذ أن فريقا من الأعداء الحجن ذوي قربى الابركي الذي قتله لوكاشكا أخيرا، جاءوا من مقامهم الجبلي، ومعهم دليل من الكشافين ليقتفوا على افتداء جثة قريبهم المقتول، كي يأخذوها من يد القوقازيين.

وكان جنود القوقاز في هذه الساعة ينتظرون بلهفة بالغة قدوم قائدهم من مقر قيادته في قرية قريبة. وكان شقيق الأبركي القتيل رجلا فارع الطول متناسق

البنيان، له لحية صغيرة حمراء اللون ولم تكن العين تقف كثيرا عند ثيابه المهلهلة وقبعته الرثة، لأن مهابته ورباطة جأشه، أضفتا عليه جلالا كجلال ذوي التيجان، وكانت ملامح وجهه تشبه إلى حد كبير ملامح أخيه القتيل. وجلس ذلك الرجل في شموخه القرفصاء في الظل، وانصرف إلى تدخين غليونه الصغيرة، وهو يبصق الحين بعد الحين ولا يكلف نفسه النظر إلى أحد من القوقازيين. بل لم يتنازل بالقاء نظرة واحدة على جثة العزيز التي حضر خصيصا من أجلها. وفي الفينة بعد الفينة كان يصدر تعليمات موجزة في صوت أجش ينفذها من يسمعها في احترام واضح وكان واضحا لذي عينين أنه محارب متمرس، كان بينه وبين الروس أكثر من لقاء في حومة الوغي من قبل. فلم يكن والحالة هذه يشعر بالفضول للنظر إليهم ومعرفة سلوكهم.

واتجه اولينين إلى جثة القتيل يستطلعها متفحصا، وعندئذ قال شقيقه بلهجة غامضة، كلمات قليلة، فأسرع الكشاف إلى الجثة وغطى وجه القتيل بسترته. وكانت ملامح ذلك الابركي المهيب قد وقعت من نفس اولينين فاتجه إليه وجعل يسأله عن موطنه وأين موقعه، ولكن الرجل تغاضى عنه، وبصق على الأرض في ازدراء وأدار له ظهره. فدهش أولينين لأن مثل ذلك الأبركي الفقير الحال يتعاظم عليه. وبرر الأمر أمام نفسه بأن الرجل جاهل، ولا يفهم اللغة الروسية. والتفت إلى الكشاف الذي يتولى الترجمة. وكان هذا الكشاف رث الثياب أيضا، بيد أن لون شعره أسود، وأسنانه بيضاء ناصعة وعينيه سوداوان متألقتان. ولم يظهر الكشاف ممانعة في التحدث إلى اولينين، وانتهز الفرصة فطلب منه لفافة تبغ، ثم أخذ يثرثر معه بلغة روسية ركيكة:

– إن هؤلاء كانوا خمسة اخوة. وهذا القتيل هو الثالث ممن قتلهم الروس،

ولم يبق من الخمسة إلا اثنان، هذا أكبرهما.. وأشار إلى الحجني الصامت..

ثم استطرد:

– إنه محارب عظيم. له مواقع كثيرة.

وفي هذه اللحظة أقبل لوكاشكا وجلس بجوار اولينين وسأل الكشاف:

– من أية قرية أنت؟

فأشار الكشاف إلى ممر بين جبلين يبدوان على الجانب الآخر من نهر ترك:

– من قرية بين هذين الجبلين على مسيرة ثمانية أميال تقريبا.

– سألتك عن اسم القرية لا عن موقعها.

– سويق سو.

– فسأله لوكاشكا في زهو:

– هل تعرف رجلا من سويق سو اسمه كرايخان؟ إنه صديقي.

– انه جاري. وهو رجل عظيم.

وفي حماسة الحديث مع الكشاف انطلق لوكاشكا يكلمه باللغة التترية وبعد هنيهة حضر القائد وهو ضابط قوقازي يمتطي جوادا ويتبعه فارسان من القوقازيين. وكان واضحا أن هذا الملازم حديث العهد بالخدمة. نهض له بعض الجنود ممن كانوا جالسين ووقف الواقفون وقفة الانتباه. وتقدم العريف فأدى التعظيم وقال:

– كل شئ تمام!

فأوشك اولينين أن يضحك لأن هذه الحركات الروسية تبدو عند صدورها من هؤلاء القوقازيين وكأنها مسرحية سيئة التمثيل. ولكن بعد القضاء على هذه الرسميات الشكلية، بدأ السلوك يتخذ مجراه العادي. ولاسيما لأن الضابط من أهل القوقاز أنفسهم فإذا به يحدث المترجم الكشاف باللغة التترية في طلاقة تامة. ثم كتب وثيقة سلمها إلى الكشاف وتلقى منه مبلغا من النقود. ثم التفت الضابط إلى الجنود وقال:

– من منكم لوكا جافريلوف؟

فخلع لوكاشكا قبعته وتقدم من الضابط. فقال الضابط:

– لقد أبلغت موضوعك إلى العميد. ولا أدري ماذا سيكون رأيه. ولكني على كل حال طلبت الانعام عليك بوسام. ولولا أنك صغير السن لطلبت ترقيتك عريفا. هل تعرف القراءة؟

– كلا لا أعرفها.

– ولكنك على كل حال فتى شجاع. وأرجوك أن تكون دائما عند حسن ظننا. واجتهد أن تحصل على جواد لتكون من الفرسان.

وأشرق وجه لوكاشكا سرورا بهذا الثناء. وتراجع ثم وضع قبعته على رأسه وعاد إلى الجلوس في مكانه بجوار اولينين وقام الجنود برفع الجثة بأمر الضابط وأنزلوها إلى القارب. وبعد ذلك اتجه شقيقه إلى الشاطئ، فأفسح له الجنود القوقازيون الطريق على غير وعي منهم. ثم قفز الرجل إلى القارب، ورفس الشاطئ رفسة قوية بساقه، فابتعد الزورق. وعندئذ ألقى الرجل على الجنود القوقازيين نظرة سريعة ثم سأل الكشاف سؤالا مقتضبا.. فأشار الكشاف إلى

لوكاشكا. فنظر نحوه الحجني ذو اللحية الحمراء، ثم أشاح عنه بوجهه إلى الشاطئ الآخر. وكانت نظرته القصيرة إلى لوكاشكا لا تنطق بالغيظ أو الحقد بل بالاستهانة ورفع اولينين صوته يسأل الكشاف:

– ماذا كان يقول لك؟

وتروي الكشاف قليلا ثم ابتسم فكشف عن أسنانه البيضاء اللامعة وقال:

– كان يقول لي "الروس يقتلون منا. ونحن نقتل منهم. وهلم جرا".

وجلس أخو القتيل جامدا كالصخرة يحدق في الضفة الأخرى في استعلاء شديد. أما الكشاف فوقف في الطرف الآخر من القارب يجذف بمهارة ويوجه الزورق ولسانه لا يكف عن الكلام لحظة واحدة وشيئا فشيئا اختفي القارب عن الأنظار تقريبا، إلى أن وصل الضفة الأخرى. وعندئذ اكتشف اولينين جوادين مربوطين في شجرة عوسج على تلك الضفة. ثم ظهر جماعة من أهل الجبال فتألف منهم موكب صغير أحاط بالجثة التي حملت على أحد الجوادين.

وفي الوقت نفسه كان الجنود القوقازيون في قمة الابتهاج، تجلجل ضحكاتهم ودعاباتهم. وجلس الضابط في الكوخ ليشرب شيئا من الخمر قبل انصرافه، وحاول لوكاشكا أن يبدو رزينا وقورا وهو جالس بجوار اولينين، يعمل خنجره في عصا من العوسج لينتزع لحاءها. ثم لاحظ أن اولينين يشعر بالوحشة والغربة بين هؤلاء الجنود القوقازيين، فأحب أن يخرجه من صمته، فسأله بفضول مصطنع ليخلق موضوعا للكلام:

– لماذا تدخن السجائر؟ هل تجد في ذلك متعة؟

فقال له اولينين في دهشة للسؤال:

– إنها عادة تعودتها لا أكثر. ولكن لماذا هذا السؤال؟

– سألتك لأن الواحد منا نحن القوقازيين إذا أقدم على التدخين تعرض للانتقاد والمتاعب.

ثم رفع لوكاشكا نظره إلى الأفق وقال:

– نحن هنا قريبون من الجبال التي يكمن فيها الأعداء. فكيف يمكن أن تعود إلى القرية بمفردك؟ لقد بدأ الليل يرخي سدوله، وفي ذلك من الخطر عليك ما فيه. سأذهب معك. ولكن يجب أن تستأذن لي العريف.

ونظر اولينين إلى الفتى القوقازي المرح الشجاع الوسيم، ثم تذكر موقفه الغرامي مع ماريانكا وقبلاتهما عند السياج. وتذكر في الوقت نفسه إقدامه على قتل الابركي، وسروره وافتخاره بذلك فحزن وقال في نفسه: – للأسف فتى طيب كهذا تتشوه نفسه بقتل إنسان، ثم لا يرى في ذلك القتل إلا باعثا على الضحك والمرح والابتهاج! إنه جاهل. ليته يتثقف ليزين ذلك الشكل الجميل بنفس جميلة وعقل جميل، ويعلم أن السعادة ليست في القتل بل في التضحية بالنفس.

وأقبل جندي قوقازي في هذه اللحظة من زملاء لوكاشكا وقال له:

– من الخير لك يا صاحبي ألا تقابل هذا الحجني مرة أخرى.

فتغابى لوكاشكا وسأله:

– ولماذا؟

فغمز الجندي بعينيه وقال:

– ألم تسمعه يسأل الكشاف عنك؟

فرفع لوكاشكا ناظريه إلى محدثه وبالضحك يتراقص فيهما وقال:

– فليشكر ربه على أنه نجا بجلده سالما!

ولم يستطع اولينين أن يتمالك نفسه فسأله:

– لماذا أراك مسرورا هكذا؟

– لأني ظفرت بذلك الحجني!

– وهب أن القتيل أخوك، هل كان ذلك يسرك؟

فنظر القوقازي إلى اولينين نظرة تجمع بين الضحك والاستغراب وكأنه يقول له أنه يعد نفسه فوق جميع الاعتبارات الأخلاقية.

ورجع اولينين إلى نفسه فقال لها:

– إننا مثقفون. ولكن ذلك يحدث لنا كذلك. أليس بعض رجالنا يقدمون على القتل أحيانا؟

الفصل السابع

ركب الضابط القوقازي جواده منصرفا، وتقدم اولينين إلى العريف يطلب منه أن يمنح لوكاشكا ترخيصا لمغادرة النطاق، رغبة منه في تقديم خدمة إلى لوكاشكا من جهة وتجنبا لمخاطر عبور الغابة المظلمة بمفرده من جهة أخرى فأعطاه العريف التصريح المطلوب وكان واضحا في ذهن اولينين أن لوكاشكا يسره أن يذهب إلى القرية كي يختلس لقاء وقبلة من ماريانكا. واعتبر ذلك عملا من أعمال الخير التي تعهد أمام نفسه بتخصيص حياته لها. ثم أنه كان مسرورا بمصاحبة ذلك الفتى القوقازي الضاحك السن اللطيف المعشر.

والواقع أنه كان يجمع في مخيلته من غير أن يشعر بين لوكاشكا وماريانكا. وكان يجد في ذلك الاقتران الذهني باعثا كبيرا من بواعث السرور. ولما فطن إلى ذلك قال لنفسه:

– إنه فتى جميل. وهو يحب الفتاة، والفتاة تحبه. وهي فتاة مليحة ريانة. ولو كنت في مكانه وظروفه لأحببتها.

وفاض قلبه بالحنان وهو يسير بجانب لوكاشكا نحو القرية سالكين دروب الغابة المظلمة في الليل. والحق أن لوكاشكا شعر أيضا بإحساس لطيف يغمره، ويصل بين قلبه وقلب ذلك الفتى الروسي النبيل، على اختلاف هذين الشابين في كثير من الأمور. فما يكاد يجمع بينهما سوى أن كلا منهما في سن الشباب المتفتح للحياة والشباب ينظر إلى الدنيا نظرة حماسية، وهذه النظرة

المشتركة تشتبه أحيانا بعاطفة الحب وسرى ذلك التودد بين الشابين، فكلما وقعت أنظارهما على شئ أو تبادلا النظرات أحسا برغبة في الانفجار ضاحكين وفي الطريق سأل اولينين لوكاشكا:

– من أي باب سندخل؟

– أدخل من الباب الأوسط للقرية. أما أنا فسوف أرافقك إلى المستنقع. وبعد ذلك تستطيع أن تتم الطريق وحدك، لأنه سوف لا يكون أمامك ما تخشاه.

فضحك اولينين وقال بخبث:

– هل خطر ببالك أني خائف؟ إن كنت تظن أني طلبت صحبتك لذلك السبب فشكرا لك، وعد أنت من حيث أتيت، لأني أستطيع أن أعود وحدي.

وكان لوكاشكا يعتقد فعلا أن الشاب الروسي النبيل خائف، بيد أنه حرص على إرضاء اولينين فقال:

– كلنا عرضة للخوف! إنه شعور طبيعي لا حيلة لاحد منا فيه. حتى نحن القوقازيين نشعر أحيانا بالخوف!

ثم انفجرا ضاحكين، فأدرك اولينين أنه يداعبه فقال:

– تعال معي إلى بيتي كي نسمر ساعة ونشرب شيئا من الخمر، ويمكنك أن تبيت عندي وتعود إلى النطاق في الصباح.

فضحك لوكاشكا، وقال:

– ولماذا أبيت عندك؟ أتظن أنني سأجد مشقة في العثور على مكان

أقضي فيه ليلتي بالقرية؟ ليست هذه هي العقبة. وإنما سأعود لأن العريف نبه عليَ بالعودة هذه الليلة.

وساد الصمت برهة، وقد تنبهت في خاطر اولينين صور شتى أثارتها كلمات لوكاشكا الأخيرة، فقال له:

– سمعتك وأنت تغني مع رفاقك في الليلة الماضية، ورأيتك أيضا.

– حقا؟

ووجد اولينين نفسه يسأل القوقازي السؤال المباشر:

– سمعت أنك مقدم على الزواج، فهل هذا صحيح؟

فهز لوكاشكا كتفيه وقال:

– الواقع أن أمي حريصة على أن تزوجني. ولكني لا أستطيع أن أتزوج إلا إذا صدر قرار بتثبيتي في الجندية ودخلت سلاح الفرسان.

– لست إذن في الجيش العامل؟

– بل في الجيش المرابط وبيني وبين الخدمة العاملة أمد طويلا لأني التحقت بالجندية أخيرا، ثم لابد لي من جواد كي أصبح فارسا وليست لديَ الوسيلة لشراء الجواد في الوقت الحاضر، ولذا لابد من تأجيل موضوع الزواج.

فسأله اولينين باهتمام:

– وكم يساوي الجواد في اقليمكم؟

فقال لوكاشكا في تذمر:

– لقد ارتفعت أثمان الجياد كثيرا. ومنذ أيام شاهدنا جوادا في الضفة الأخرى للنهر رفض أصحابه أن يبيعوه بستين روبلا من الفضة. مع أنه ليس جوادا من أصائل جياد النوغاي.

وصمت اولينين برهة ثم قال فجأة:

– أتقبل أن تكون مراسلتي؟

ولما بهت الفتى القوقازي ولم يجب، استطرد اولينين يقول له:

– أستطيع أن أعطيك جوادا. فعندي في الواقع جوادان. ولست بحاجة إلى جوادين. جواد واحد يكفيني.

فضحك لوكاشكا وردد عبارة اولينين قائلا:

– "لست بحاجة إلى جوادين. جواد واحد يكفيني". هذا كلام جميل. ولكن لم تمنحني أحد الجوادين هدية بغير مقابل؟ إنني أستطيع بعون الله أن أدبر أموري بنفسي.

فقال اولينين:

– لا تقل هذا الكلام يا رجل! أترفض حقا أن تكون مراسلتي؟

وكان اولينين في الواقع قد تحمس كثيرا لفكرة إهداء جواديه الأصيلين إلى لوكاشكا، تنفيذا لخطته الجديدة فيما زعم لنفسه من إسداء الخير.وساد الصمت برهة وهو لا يدري فيم يفكر القوقازي الوسيم وكان لوكاشكا أول من قطع حبل الصمت قائلا:

– يقولون أنك غني. فهل تملك بيتا في روسيا؟

– إني أملك عدة منازل في مدن روسية كثيرة.

وبسذاجة سأله لوكاشكا:

– هل بيتك كبير، أكبر من بيتنا؟

فلم يتمالك اولينين نفسه من الابتسام وقال:

– بل أكبر منه بكثير. مساحته تزيد على مساحة بيتكم أكثر من عشر مرات. وهو مكون من ثلاثة طوابق لا من طابق واحد.

وسكت لوكاشكا مرة أخرى وهو يدفع خياله كي يتصور ممتلكات هذا الروسي ثم سأله أخيرا:

– وهل عندك جياد مثل جيادنا؟

ومرة أخرى ابتسم اولينين وقال:

– في اسطبلاتي أكثر من مائة جواد. كلها جياد أصيلة، لا يقل ثمن الواحد منها عن أربعمائة روبل. فهي ليست كجيادكم هذه. جيادنا سريعة الجري من سلالة انجليزية، ولكني أفضل عليها جيادكم.

ومرة أخرى صمت لوكاشكا مفكرا ثم ابتسم وسأله بخبث:

– وما الذي جاء بك إلى بلادنا الفقيرة وأنت غني مرفه؟ هل جئت إلى هنا بمحض اختيارك أم مكرها بحكم الخدمة العسكرية؟

فأجابه اولينين بكل جد قائلا:

– بل جئت بمحض اختياري، لأني كنت مشتاقا لمشاهدة هذه الأقاليم

التي تختلف عن موطننا، ولأني أيضا كنت ميالا للاشتراك في حملة عسكرية.

فقال لوكاشكا بلهجة الجد ايضا:

– وأنا كذلك متلهف على الاشتراك في حملة عسكرية وسيتم ذلك ذات يوم أتسمع؟ هذه بنات آوي تتصايح!

ولم يعلق اولينين على هذه الملاحظة بل سأله:

– خبرني. ألا نشعر بشئ من الارتياع حين تقتل إنسانا مثلك؟ فقال لوكاشكا باستخفاف:

– ارتياع؟ وماذا في ذلك مما يدعو للارتياع؟ هون عليك!

ثم لم يلبث أن انتقل إلى الفكرة المسيطرة على ذهنه فقال:

– كم أتمنى حقا أن يتاح لي الاشتراك في حملة عسكرية!

فقال له اولينين.

– من يدري؟ لعلنا سنشترك في حملة واحدة قريبا. فإن كتيبتنا ستغادر القرية قبل حلول العيد. وكذلك سريتكم.

وصمت لوكاشكا قليلا ثم قال:

– وماذا يحمل مثلك على المجئ إلى مثل هذه الأقاليم؟ إنك رجل غني يمتلك الدور والخيل والعبيد. ولو كنت في مكانك ما جشمت نفسي أي عناء ولانصرفت بمجموع نفسي إلى الهو والطرب؟ ما رتبتك في الجيش؟

– أنا من طلبة المدرسة الحربية. ولكن رؤسائي طلبوا منحي رتبة الملازم.

فقال لوكاشكا بإعجاب:

– هذا شئ عظيم. ما لم تكن تبالغ للتفاخر أمامي بمنزلتك. وما لم تكن تجسم لي وصف ذلك. الحقيقة أنه لو كانت لي دار كهذه ما غادرتها إلى أي مكان على وجه الأرض. وهل طابت لك الإقامة في بلادنا الموحشة الفقيرة؟

فأجابه اولينين بحماسة:

– أجل طابت لي الإقامة بينكم.

وكان الليل قد غشى، والفتيان يقطعان الوقت بالحديث حتى وصلا إلى القرية. ولما اقتربا من المساكن أنسا إلى نباح الكلاب وأصوات النساء بعد الظلمة الحالكة في الغابة التي كانت تتردد بين أرجائها صيحات بنات آوي كأنها العويل.

ثم بدت لعينيهما معالم بيوت القرية تتألق منها الأنوار. وملأت أنفهما رائحة الوقود المحترق، والدخان المتصاعد من الأكواخ. وأحس اولينين بحنين إلى تلك القرية، وتأكد لديه أنه لم يشعر بسكينة نفسه وطمأنينتها إلا بين تلك الأكواخ القوقازية. فصار لوكاشكا في تلك اللحظة قريبا إلى قلبة غاية القرب، لأنه فتى تتمثل فيه هذه الجبال، وتلك الغابة، وبساطة الطبيعة وقوتها، وفطرة الأهالي السليمة.

ووصل الشابان إلى بيت اولينين. فأخذ العجب من لوكاشكا مأخذه عندما رأى اولينين يدخل الحظيرة على الفور ويخرج منها بجواد كان قد اشتراه وهو في طريقه مع الكتيبة إلى القرية منذ أسبوع. ولم يكن يألف ركوبه، لأنه جواد متقدم في السن قليلا، ولكنه بحالة جيدة. وقدم اولينين الجواد إلى

لوكاشكا ببساطة تامة.

وصاح لوكاشكا:

– لماذا تقدم لي هذه الهدية الغالية؟ اية خدمة قدمتها إليك حتى استحقها؟ إني لم أفعل ما يستوجب ذلك.

فقال له اولينين:

– لا تقل هذا يا رجل. إنما هي هدية متواضعة. ومن يدري؟ ربما استطعت أن ترد لي الجميل في يوم من الأيام. ولاسيما وفي النية أن نخرج معا في حملة واحدة على العدو.

وشعر لوكاشكا بالحيرة والتردد، وقال دون أن ينظر إلى الجواد:

– ولكني لا أفهم معنى لهذه الهدية؟ ثم أن الجواد غالي الثمن.

فألح عليه اولينين قائلا:

– خذه يا رجل. فإنك إن لم تأخذه اعتبرت ذلك إهانة.

فتناول لوكاشكا عنان الجواد من يده وقال:

– شكرا إذن! إني في الواقع لم أكن أتوقع منك هذا!

وكان يبدو على اولينين عندئذ سرور بالغ كأنه فتى يافع ظفر بحلة جديدة في يوم عيد، وصاح ينادي فانيوشا:

– احضر لنا شيئا من الجكير يا فانيوشا!

ثم قال للوكاشكا:

– اربطه في السياج. إنه حصان أصيل سريع العدو. وهيا ندخل لنشرب كأسا بعد عناء السير.

ودخل الاثنان، وجاء فانيوشا بكأسين من الخمر، فتناول لوكاشكا إحداهما بين يديه، ورفعها إلى فمه فأتى عليها في جرعة واحدة ثم قال:

– سأجد بمشيئة الرب وسيلة أرد بها هديتك إليك. إنها دين في عنقي. وما اسمك؟

– ديمتري اندريفتش اولينين.

– شكرا يا ديمتري اندريفتش. وبورك فيك. وإن شاء الله سنكون صديقين صدوقين. والآن وقد تآخينا فقد وجبت عليك زيارتنا في بيتنا. أجل قد لا نكون أغنياء. ولكننا بفضل الله نعرف كيف نحتفي بصديق فاضل. وسوف أخبر أمي بالمعروف الذي صنعته معي. فلا شك أنك قد تحتاج إلى شئ من الفاكهة أو القشدة أو العسل وأنت غريب الدار بيننا. وإذا زرتني في النطاق ستجدني على استعداد كي أخرج معك للصيد، أو أعبر معك النهر للقنص في الجبال، أو أذهب معك إلى أية وجهة تختارها.

وصمت قليلا ثم هز رأسه متحسرا وقال:

– واخسارتاه! لقد أصبت منذ أيام قلائل خنزيرا بريا كبيرا. وزعت لحمه على زملائي الجنود. ولو كنت عرفتك وقتئذ وعرفت نبل طويتك لقدمته إليك كله!

فابتسم اولينين وقال له:

– هون عليك! وأشكرك على كل حال.

وعندئذ خفض لوكاشكا صوته وقرب رأسه من اولينين وقال له:

– هناك مسألة أريد أن استطلع رأيك فيها.

– سلني ما شئت أيها الصديق.

– لي صديق حميم اسمه كرايخان. وهو من وجوه قرية سديق سوء وقد طلب مني هذا الصديق أن أذهب معه ذات ليلة فنكمن معا في بعض مسالك الجبال التي يعرفها هو تمام المعرفة، ويعلم أن أهل الجبال يهبطون منها بقطعان الخيل في طريقها من مراعي الكلأ. فنقطع عليهم الطريق ونظفر بغنيمه طيبة باردة. فهل تحب أن تأتي معي؟ أقسم لك إنني لن أخون عهدك.

فهز اولينين رأسه وقال له:

– لا بأس. ربما ذهبنا في يوم من الأيام.

وكان اولينين يدرك تمام الإدراك أن لوكاشكا إنما يعبر بذلك العرض الحماسي عن إحساسه العميق بالامتنان له.

وكان لوكاشكا قد انطلق على سجيته في الحديث بعد أن زالت جميع الحواجز بينه وبين اولينين. واستمر السمر بين الشابين حتى الهزيع الأخير من الليل. وعندئذ نهض لوكاشكا وصافح اولينين ايذانا برغبته في الانصراف. ولم تكن الخمر التي تجرعها قد أثرت أدنى تأثير على اتزانه. لأن أهل القوقاز ألفوا احتساء الخمر المحلية منذ نعومة أظفارهم فلا تؤثر عليهم.

وأطل اولينين من النافذة ليرقب سلوك لوكاشكا مع الجواد الجديد الذي صار ملك يمينه. فأبصر لوكاشكا يسير إلى الجواد على مهل، ثم يتناول عنانه

ليقوده إلى خارج السياج. وفجأة قفز كالهر الوحشي فاستوى فوق ظهر الجواد، وجمع الأعنة في يده وأطلق صيحة جبلية فانطلق الجواد به.

والحق أن اولينين كان يعتقد أن الفتى القوقازي سيبادر إلى التماس لقاء مع ماريانكا قبل أن يغادر القرية، لتشاطره أفراحه بامتلاك ذلك الحصان، الذي كان افتقاره إليه عقبة كأداء في سبيل مشروع زواجهما المرتقب. بيد أن الفتى لم يلتفت إلى كوخ حامل العلم بل انطلق في سبيله لا يلوي على شئ. ولئن خاب ظن اولينين، فإنه في الواقع أحس ارتياحا شديدا لسبب غامض لأن الفتى لم ينشد لقاء الفتاة.

وانعكس ذلك السرور على حركات اولينين وكلامه عقب انصراف لوكاشكا، فأقبل كالمراهق يروي لخادمه فانيوشا قصة تقديمه الجواد هدية للفتى القوقازي، كأنما ذلك العمل فتح من الفتوح. وانطلق أيضا يحدث الخادم بخطته الجديدة التي عقد عزمه على انتهاجها. وقد وفقه الله إلى اكتشافها في لحظة الهام، وهو مضطجع يتمرغ في التراب في مجثم إيل وحشي ذي قرون تحت شجرة كمثرى وارفة الظلال!

وبطبيعة الحال لم يجد هذا المذهب الجديد قبولا لدى الخادم فانيوشا، فجعل يتمتم بالفرنسية الركيكة منتقدا تصرفات مولاه المالية.

أما لوكاشكا فتوجه إلى بيته، وقفز عن ظهر الجواد، وسلم زمامه إلى والدته، وطلب منها أن تضمه إلى قطيع خيول القرية المشترك الذي يرعى في الأحراش. ثم استأذنها في الانصراف على الفور لأنه مرتبط بالعودة إلى النطاق قبل الفجر.

وفهمت شقيقته البكماء مراده، فأقبلت عليه تحتضنه وتومئ برأسها وعينيها ويديها وحركات جسمها كله، لتعبر له عن عظيم سرورها. وقالت له فيما قالت بلغة الإشارة، إنها لو رأت ذلك الشهم الذي وهبه الحصان لبادرت إلى السجود تحت قدميه، وتقبيل ركبتيه عرفانا منها بجميله على أخيها الحبيب.

أما والدته فإنها هزت رأسها ولم تقل شيئا، لأنها لم تستطع أن تفهم الملابسات الحقيقية لتلك الهدية. وظنت بفطنتها الفطرية أن القصة ظاهرة التلفيق. أن ولدها سرق ذلك الجواد من مكان ما خارج القرية، وأعمال السطو تعتبر في ذلك الإقليم من دلائل الفتوة والبأس. وكان هذا الظن مدعاة لأن تفهم ابنتها البكماء وجوب ضم الجواد إلى القطيع العام في المراعي قبل طلوع النهار حتى لا يفتضح الأمر.

ورجع لوكاشكا إلى النطاق وهو لا يكف عن التفكير في سلوك اولينين معه. وقد أدرك من ركوب الجواد أنه ليس من الأصائل ذات الأنساب المختارة. ولكنه على كل حال لا يساوي أقل من أربعين روبلا من الفضة. وقد وقعت منه هذه الهدية العظيمة موقعا سارا بغير شك، لأنها تعتبر خطوة حاسمة في طريق حياته ومستقبله. ولكنه لم يزل متحيرا لا يدري ما الذي حدا بأولينين إلى تقديم هذه الهدية الغالية إليه. وكان هذا الارتياب سببا في عدم إحساسه بعرفان الجميل لذلك الصنيع. بل انتابته الهواجس في ذلك الصدد، لأنه توقع أن تكون لذلك الشاب الروسي أطماع أخرى خافية. وإن لم يدر كنه هذه الأطماع على وجه التحديد.

إن عقله الفطري لا يسيغ بسهولة أن يقدم رجل هدية تبلغ قيمتها أربعين

روبلا على الأقل، لرجل غريب عنه تماما لغير غرض نفعي. إن البر لا يمكن أن يصل إلى ذلك المستوى. ولو أن اولينين كان سكرانا عندما قدم إليه تلك الهدية لكان سلوكه مستساغا. ولكنه أقدم على ذلك قبل أن يقرب الكأس. فهي ليست هدية إذن، وإنما هي رشوة يريد بها أن يشتري إخلاصه أو إغضاءه.

– يا له من خبيث مخادع! إنه يستخف بعقليتنا. ويظن أن أهل القوقاز بلهاء! سنرى! لقد استوليت على الجواد وانتهى الأمر. وسأكون مفتوح العينين حتى أفوت على هذا الخبيث مطامعه الخفية! وسنرى في النهاية من منا أذكى من صاحبه فتكون له الغلبة في معركة الدهاء هذه!

وهكذا أسلم التفكير لوكاشكا إلى تغيير قلبه على اولينين. ولذلك لما وصل إلى النطاق لم يقل لأحد من زملائه كيف حصل على ذلك الجواد. ولكن الزملاء كجميع أهل الريف ألحوا عليه في السؤال فراغ من بعضهم، وقال لبعضهم الآخر أنه اشتراه من قرية أخرى. بيد أن الحقيقة لم تلبث ان انتشرت على كل لسان شأن جميع أحداث الريف. ولابد أن فانيوشا خادم اولينين هو الذي أفشى السر.

واستولت الحيرة على ماريانكا ووالدة لوكاشكا وحامل العلم وسائر من علموا بتلك الهدية العجيبة التي لا سبب لها، وكانت نتيجة هذا العجب التوجس والحذر من اولينين. ولكنهم في الوقت نفسه أكبروا ثراءه الواسع، بحيث يسخو بشئ ثمين كهذا لشاب غريب.

وقال أحدهم:

– اسمعت أن طالب الحربية الذي ينزل في بيت حامل العلم منح

لوكاشكا حصانا قيمته خمسون روبلا على الأقل؟ لابد أنه واسع الثراء!

فأجابه آخر:

– سمعت. ولكن لابد أن هذه الهدية ليست بلا مقابل. فمن يدري أية خدمة أو صفقة تمت بين الشابين!

وقال ثالث:

– طلبة المدرسة الحربية قوم مشهورون بخبث طويتهم ودهائهم وليس من المستبعد أن تتكشف الأمور عن سر رهيب، أو فعلة نكراء يرتكبها ذلك الفتى الكريم!

وعلى هذا النحو جرت الأحاديث بين جميع من في القرية.

الفصل الثامن

أصبحت حياة اولينين في القرية تسير على وتيرة واحدة تشيع في النفس السأم والضجر إذ كان يقلل من صلاته برفاقه وبرؤسائه الضباط، لأنه كان يلقى معاملة ممتازة باعتباره نبيلا ثريا، فلا يكلف بالخروج مع الكتيبة للقيام بالتدريبات والأعمال المعتادة. وطلب له قائده الترقية إلى رتبة الملازم، ثم تركه وشأنه إلى أن تصل براءة الرتبة فيمارس ما يشاء من العمل على أساس الوضع الجديد. وكان الضباط عموما يعاملونه باحترام وينظرون إليه نظرة الأكبار التي يختصون بها علية القوم، ويتمنون لو أنه خالطهم. بيد أنه لم يكن يستسيغ ألعاب الورق، أو المآدب الماجنة الصاخبة التي يقيمها الضباط عادة. ولهذا فهو يتجنب مشاركتهم في الحياة الاجتماعية، كما يتجنب مشاركتهم في أوقات العمل.

وكانت معيشة الضباط الذين يذهبون للإقامة بعض الوقت في القرى القوقازية تسير منذ زمن بعيد على وتيرة مستقرة، تعتبر من تقاليد الحياة العسكرية في الجيش الروسي. فإذا كان الضابط الروسي يتجرع البيرة بانتظام ويلعب الورق حين يكون مقيما في الثكنات أو القلاع، ويقامر ويخوض حديث المكافآت وبدل السفر وبدل الميدان، فإنه حين يقيم الضابط في قرية قوقازية فليست البيرة ما يشربه بكميات كبيرة، بل الخمر المصنوعة محليا، وهي الجكير، ويهدي أصناف الحلوى المصنوعة بعسل النحل إلى فتيات الإقليم، ومن المستحسن أن يقع في غرام واحدة من

القوقازيات الحسان اللواتي يطاردهن الضباط وفي الغالب يتزوجون منهن!

ولكن اولينين كان له منواله الخاص في الحياة، ولا يستسيغ بذوقه الفردي أن ينتهج سلوك القطيع العام من الضباط وطلاب الحربية أو أبناء طبقته من العلية وهو في موسكو. ولذا نراه في هذه القرية لا يندفع مع التيار الشائع ولا يسف إلى تلك الحياة الصاخبة التي يعيشها الضباط في القوقاز من حوله فقد ألف أن يغادر فراشه مع أول خيوط الفجر، فيشرب الشاي وهو واقف على مدخل كوخه يملأ عينيه في روعة الإعجاب من الجبال التي تنعكس عليها أولى شعاعات النهار، ويجتلي وجه ماريانكا الصبوح وهي تروح لحاجتها في الفناء وتغدو، ثم يرتدي ثيابا قديمة من الجلد تصلح للصيد. ويضع في حزامه سكينا ماضية، ويحمل بندقيته، وجانبا من السجائر والطعام، ثم يصفر يدعو كلبه. وما تحين الساعة الخامسة حتى يكون في طريقه إلى الغابة من وراء حدود القرية. ولا تراه القرية بعدها إلا عائدا في نحو الساعة السابعة مساء، وقد نال منه الجوع والتعب، تتدلى من حزامه الدراريج، أو يحمل حيوانا آخر ظفر به. ومن يدقق النظر فيما يحمله، يجد أن الطعام والسجائر كما هي لم تتمسها يده. ولو أتيح لأحد أن يفتش داخل جمجمته، لوجد أن ما فيها من الأفكار قد ظل هادئا لم يمس، لأنه يترك نفسه للطبيعة التي حوله فلا يفكر في شئ، ولا يأكل شيئا، ولا يدخن طيلة الساعات الأربع عشرة.

كان يعود جائعا مكدودا، بالجسد فقط، أما روحه المعنوية فيعود بها وقد تجددت وقويت وشمله شعور عميق بالسكينة والسعادة، ولم يكن هو نفسه يدري ماذا يدور في حناياه وهو بين أحضان الغابة. أهي أفكار أم

ذكريات أم أحلام يقظة؟ الأرجح أن هذه كلها كانت تختلط. حتى إذا تنبه من سبحاته في بعض الأحيان وحاول أن يتبين ما يفكر فيه وجد أنه يضبط نفسه في حلم غريب كان يكون رجلا قوقازيا يعمل هو وزوجته القوقازية الحسناء في حقله أو كرمته. أو يرى نفسه رجلا من الحجن يعيش في الجبال. أو خنزيرا بريا يهيم بين الأدغال. وكان يحلم بهذا كله وعيناه لا تغفلان عن ترقب ظهور الدراج أو الخنزير البري أو الايل!

أما الأمسيات فأصبح من المألوف أن يشاركه فيها العم بيروشكا. يحضر متى أرخى الليل سدوله، فيأتي فانيوشا لهما بكمية محترمة من الجكير الجيد. ويجلس الاثنان في مدخل الكوخ يتسامران، ويشربان في هدوء إلى موهن من الليل. ثم يفترقان ويأوي كل منهما إلى فراشه مطمئن النفس قرير العين ومع الفجر ينطلق اولينين إلى الصيد مرة أخرى ليعود في الماء ناشط النفس مكدود البدن، لينعقد مجلس السمر بينه وبين صاحبه الشيخ على كئوس الشراب من جديد، وهو لا يفكر في متعة وراء هذه المتعة.

وفي بعض الأحيان كان اولينين يقضي النهار في بيته على سبيل الراحة فيقضي الوقت لا في مراقبة الدراج والغزلان الوحشية، بل في مراقبة حركات ماريانكا من خلال نافذته أو عند مدخل كوخه. يرقبها ويترقبها من غير أن يدري، ترقب المتعطش اللهفان وكانت عاطفته نحوها مزيجا من الاحترام والحب المجرد عن الرغبة – أو هذا على الأقل ما كان يزعمه لنفسه – حبا كحب مظاهر الطبيعة الجميلة الرائعة من جبال سامقة رهيبة، وأشجار عالية ظليلة وشطئان ندية رطيبة، وسماء بعيدة الآماد ترصعها النجوم. فلم يخطر بباله قط أن يصل حياته بحياتها أو ينشئ بينه وبينها

علاقة. إذ كان يرى من المستحيل مثلا أن يكون بينه وبينها مثل الذي بينها وبين لوكاشكا. ومن باب أولي لم يخطر بباله إطلاقا، أن يحاول معها شيئا من قبيل ما يحاوله ويحققه الضباط وطلاب الحربية من صلات ماجنة شائنة بالقوقازيات، لأن مزاجه الفردي كان يأنف من ذلك الإسفاف الساقط. فقد علَم علم اليقين أنه إن استبدل بحياة الهدوء والتأمل وما تكفله له من غبطة روحية، ذلك المجون الحسي الغليظ، لتردى في حمأة الانحلال وما يعقب ذلك من الندم وعذاب الضمير.

وفضلا عن هذا كان اولينين قد أخذ نفسه بانكار ذاته مع كل إنسان، ومعها هي بالذات على الرغم من فتنتها وقربها منه. فوجد لنجاحه في ذلك الصدد نشوة سرور نفسي. وفي الوقت نفسه كان يحس نحو ماريانكا بشئ من التهيب الغامض العميق، فلا يستطيع أن يستهين بها تلك الاستهانة التي تسوغ له إلقاء الغزل المبتذل على مسامعها في نزق الشباب المعهود.

وفي يوم صيفي كان قد أخلد فيه إلى البيت دخل عليه فجأة أحد الشبان من معارفه، وكان قد ألتقى به في بعض مجتمعات موسكو. وبدأ ذلك الشاب يكلمه بتلك الرطانة العجيبة التي يستخدمها أمثاله من أبناء العلية المتحذلقين، وهي رطانة تمتزج فيها لهجة أهل موسكو بالكلمات الفرنسية امتزاجا ليس له نسق معروف:

– كم أنا سعيد يا عزيزي. يا عزيزي الأعز! أوه لو تعلم كم سرني أنك موجود في الوقت الحاضر في هذا المكان! انظر يا عزيزي إلى ما يفعله بنا القدر من المفاجآت اللطيفة! ها هو ذا يجمع بيننا على غير ميعاد في هذا

المكان الموحش الذي لم يكن المرء يتوقع فيه شيئا من الخير! تصور!

كان اسم هذا الشاب الأمير بيليتسكي وأخذ يثرثر بصوته المائع، ويروي له قصة حضوره إلى القوقاز بجميع تفاصيلها. وكيف أنه على سبيل التغيير والتسلية التحق بالكتيبة القوقازية بصفة مؤقتة. وعرض عليه القائد العام أن يكون ياوره. وفعلا سيتسلم منصبه الجديد بعد الحملة. ولم ينس الأمير أن يردف ذلك بقوله أنه شخصيا لا يهتم كثيرا بذلك العمل.

وقبل أن يترك لاولينين فرصة التعليق استطرد يقول:

– إن المعيشة بعض الوقت في هذا الركن الخرب من العالم لابد أن يقابلها على الأقل كسب هام ينفع الإنسان في مستقبله. كأن تكون توطئة أو تمهيدا للحصول على وسام أو رتبة، أو للنقل إلى فرقة الحرس القيصري. وهذا التغيير في المستقبل طبعا ليس لمصلحتي الشخصية. فأنا لا أهتم بكل ذلك! بل إرضاء لخاطر أقاربي ومعارفي الكثيرين! أوه يا عزيزي الأعز! لقد رشحوني للإنعام القادم وأوصوا لي بوسام القديسة أنا! أوه يا عزيزي الأعز! النساء في هذا المكان لا نظير لهن! أوه! وما حكايتك أنت معهن أيها العفريت الصغير! لقد أخبرني النقيب ستارتسيف – يا له من إنسان غبي لطيف طيب القلب! – إنك، أوه يا عزيزي الأعز!، تحيا هنا حياة الهمج، لا تختلط بأحد من الضباط. وأنا طبعا أقدر دوافعك إلى هذه العزلة جيدا. فمن الذي يسيغ أيها العزيز أن يختلط بمثل هؤلاء الضباط الريفيين العوام؟ ولكن لن تقاسي من العزلة بعد اليوم! فهأنذا قد جئت. وسنتقابل كثيرا ونمرح معا. فنحن من عجينة واحدة! لقد نزلت في

بيت العريف. وهناك – أوه يا عزيزي الأعز! – فتاة سبحان الخلاق! ما كل هذا الحسن؟! اسمها اوستنكا أنها ساحرة لعوب تخلب العقول وتسبي القلوب! أوه يا عزيزي الأعز.

وبعد ذلك انطلق هذا الثرثار يروي له أخبار من هب ودب من أبناء المجتمع الراقي في موسكو وبناته. ذلك المجتمع الذي ظن اولينين أنه فرغ منه إلى الأبد. فها هو يأتي إليه ها هنا في شخص الأمير بيليتسكي! والمشهور عن هذا الأمير أنه لطيف المعشر خفيف الروح. بيد أن اولينين بمزاجه الفردي كان يراه سمجا ثقيل الظل، بالرغم من وسامة ملامحه وبشاشة وجهه. وأزعجه أنه لن يستطيع إقصاء هذا الرجل عن حياته وهو يعيش معه في قرية واحدة. فاضطر لمجاراته في الكلام. ووجد نفسه على غير وعي منه ينزلق إلى التحدث بالفرنسية معه. فهما الاثنان الشخصان الوحيدان في القرية اللذان يحسنان الكلام بتلك اللغة في طلاقة.

ووعده اولينين أن يرد له الزيارة في بيت العريف. وما إن خرج بيليتسكي، حتى أقبل الخادم فانيوشا يعرب عن سروره الفائق بحضور هذا الأمير إلى القرية. فهو في نظر الخادم نموذج الشباب الراقي المهذب الاجتماعي، وليس كسيده غريب الأطوار ميالا للعزلة عزوفا عن التمتع بامتيازات طبقته وظروفه الطبيعية.

وما هي إلا أيام قليلة حتى كان هذا الأمير قد اندمج في القرية وأخذ يعيش معيشة الضباط الأغنياء في أية قرية قوقازية يحلون فيها. وما هو إلا شهر واحد حتى كان يقيم حفلات السكر والمجون والعربدة لشيوخ القرية،

وتستمر تلك الحفلات إلى طلوع النهار. ولكنه كان يقيم أيضا حفلات خاصة للفتيات يغرقهن فيها بالهدايا، ويعيث فيهن فسادا، ثم يملأ الدنيا بمغامراته معهن!

والعجيب أن الفتيات والنساء راقت لهن طريقته في المعاملة وحملهن هو من جانبه على أن ينادينه دائما "يا جدي" زيادة في الألفة، ورفع التكاليف بل إن الرجل أنفسهم والشيوخ أحبوا هذا الأمير لأن القوقازيين يفهمون الرجل الذي يشغف بالخمر والنساء، ويعجبون به لأن تلك علامات الفتوة الفطرية في نظرهم. أما اولينين فطراز غريب غير مفهوم في نظرهم. إنه المعدن الغريب الذي تؤدي غرابته وغموضه إلى التوجس منه، والميل إلى كراهيته.

الفصل التاسع

في الساعة الخامسة صباحا خرج فانيوشا من الكوخ يشعل السيموفار لصنع الشاي، ويهوي لإشعار النار بمروحة من نوع غريب، هي رقبة حذاء طويل من أحذية سيده وكان اولينين قد امتطى جواده ومضى به إلى النهر ليستحم وهي عادة جديدة أنشأها لنفسه في المدة الأخيرة. وجعل الدخان يتصاعد كثيفا من النار المشتعلة. وفي هذا الوقت كانت ماريانكا في حظيرة الماشية تحلب جاموسة. وسمعها فانيوشا تصيح في غيظ شأن من عيل صبرها من البهيمة:

– ألا تريد هذه الشيطانة أن تقف ساكنة برهة وجيزة؟

وبعد ذلك توالي صوت الحلب منتظما رتيبا وفي الطريق الواقع أمام الكوخ سمع وقع حوافر جواد تقترب في تواثب ينم عن خفة الحيوان ونشاطه. وبعد قليل ظهر اولينين عند الباب فوق ظهر الجواد العادي بلا سروج. وكان ذلك الجواد رشيقا أشهب اللون يتألق في بكرة الصباح الندية بالندى كما يتألق كل شئ وقد خرج من وسن الطبيعة إلى صحوة النهار. وأطل رأس ماريانكا البديع من الحظيرة وقد علاه منديل أحمر اللون. ثم لم يلبث ذلك الرأس الجميل أن اختفي فجأة كما برز فجأة.

وكان اولينين يلبس قميصا أحمر اللون من الحرير وسترة جركسية بيضاء اللون، وحول خاصرته حزام عريض من الجلد يتدلى منه خنجر وفوق رأسه قبعة عالية، وكانت جلسته على صهوة جواده العالي المبتل بماء النهر في وضع رشيق

لا شك في أنه كان يقصده عن عمد وانحنى اولينين وهو راكب ليفتح الباب. فتهدل شعره المبتل فوق وجهه الوضئ الذي يفيض نضرة وحيوية. وكان واضحا أنه يعتقد في نفسه الوسامة والرشاقة وخفة الحركة كالمحاربي القوقازيين، أو هو أشبه الناس بهم. ولكن ظنه هذا كان يفتقر إلى أساس متين. فكان حسبه أن يرمقه أي قوقازي أصيل بنظرة واحدة ليدرك أنه بإزاء جندي روسي يرتدي زي القوقاز بحكم العمل ليس إلا. فهو دخيل غير أصيل. وما أن أدرك اولينين أن الفتاة أطلت برأسها من حظيرة الماشية حتى زادت حركاته رشاقة بصورة استعراضية ودفع الباب على مصراعيه، وجذب الأعنة وطرقع بالسوط واقتحم الفناء كمن غزا حصنا عنوة واقتدارا، ثم صاح في بهجة وهو حريص ألا ينظر إلى باب الحظيرة:

– أفرغت من إعداد الشاي يا حبيبي فانيوشا؟

وراقه أن جواده الأصيل وقف يتواثب في الفناء ويضرب بقائمتيه الهواء، وكل عضلة من عضلات جسمه البديع التكوين تنتفض كمن يضيق بالاحتباس، ويتحفز للإنطلاق. فهو جواده، وفي حصول جواده على نظرة إعجاب من ماريانكا فخر ينعكس عليه ويفعم بالسرور فؤاده وعلى عادة فانيوشا أجابه بالفرنسية الركيكة:

– كل شئ قد أعد.

ومن غير أن يدير اولينين وجهه، أحس في دخيلة نفسه عن طريق حاسة غامضة أن ماريانكا ترقب حركاته من داخل الحظيرة. فغالب رغبته في أن يملأ من حسنها ناظريه. وتأهب للقفز من فوق جواده، فخانته رشاقته وأوشك أن

يسقط. وكان أول هم له أن التفت من غير تدبر إلى ناحية الحظيرة، فاطمأن عندما وجد بابها خاليا لا يطل منه رأس ماريانكا. ولكن صوت الحلب كان مسموعا مستمرا يدل على أنها لم تزل هناك.

ودخل اولينين الكوخ ثم غادره بعد قليل فاتخذ لنفسه مكانا في ذلك الجانب من المدخل الذي لم تكن أشعة الشمس قد غمرته بعد، وقد جلب في يده غليونه وكتابا يقرأ فيه وجعل يحتسي أكواب الشاي وكان في نيته ذلك اليوم ألا يغادر داره قبل ساعة الغداء. فينفق الوقت في كتابة الرسائل التي تراكمت وطال ارجاؤها. ثم عز عليه أن ينهض من مكانه هذا في مدخل الكوخ المكشوف ليجلس إلى مكتبه في الداخل، كأنما جدران الكوخ أسوار سجن كريه.

ورأى وهو جالس اولنكا تشعل موقدا، ثم أبصر ابنتها ماريانكا تسوق الماشية إلى الخارج، ثم تعود فتجمع الروث الذي تصنع منه أقراص الوقود وتكومه على طول السياج. وظل اولينين يتشاغل بالقراءة في الكتاب. ولكنه لم يفهم حرفا واحدا مما كان يقرؤه. لأنه كان مشغول الذهن والعين باختلاس النظر إلى حيثما أحس للحسناء الريفية وجودا. وكانت لا تكف عن الحركة في الفناء. فلم تكف عيناه عن تتبعها، وهو حريص حرص الشحيح ألا تفوته لفتة من لفتاتها، سواء تبخترت في الظل الرطيب الذي يسقطه هيكل الكوخ على الفناء، وقد برزت إلى الضوء المتراقص الوضاح، حيث تتألق كزهرة الزنبق بقامتها الفينانة، وقد اكتست ذلك الثوب الزاهي. وكان يشوقه على وجه الخصوص ان يرى تثني غصنها الناعم الأملود، وهي تنحني على الأرض في رشاقة ونشاط. فإذا بصدرها الناهد يهتز كالثمر الناضج تحت قميصها الوردي

الذي يلف نحرها، فيكاد النحر يضئ من تحت الغلالة ويشق بأنواره ما ضرب عليه من حجاب. ثم تنتصب واقفة فتهتز الثمرتان الناضجتان، وتحتجان مرة أخرى على ضيق الأسر.

وكانت ترمقه أحيانا بمقلتيها السوداوين فتلمح اشتغاله بشأنها فيفيض السرور من عينيها ابتهاجا بما تراه من سطوة جمالها، وإن لم يفتها أن تزوي ما بين حاجبيها اللذين أبدع الخالق رسمهما وكان ذلك حريا ان يستمر إلى ما شاء الله، لولا أن دخل الأمير بيليتسكي الفناء صائحا صاخبا وقد ارتدى كسوة ضابط قوقازي:

– ما هذا يا اولينين؟ هل استيقظت منذ وقت طويل؟

فوقف اولينين يصافحه وهو يقول له:

– عجبا لأمرك يا بيليتسكي! كيف استيقظت مبكرا هكذا؟

فهز بيليتسكي كتفيه في ميوعته المعهودة وقال:

– لم تكن لي في ذلك حيلة. اضطررت للنهوض مبكرا والخروج في هذه الساعة.

– ما الخبر؟

– إننا سنقيم في هذه الليلة حفلا راقصا.

وهال اولينين أن يرى بيليتسكي يلتفت بكل بساطة نحو المعبودة المرهوبة ماريانكا ويسألها بلا حرج على الإطلاق:

– طبعا ستحضرين الليلة إلى بيت صاحبتك اوستنكا يا ماريانكا؟

وطأطأت ماريانكا رأسها، وتشاغلت بعملها كأنها لم تسمعه، ثم لم تلبث أن اتجهت إلى كوخها منتصبة القامة، رافعة الرأس في مشيتها الجادة التي تكاد تشبه مشية الرجال.

وهتف بيليتسكي بصوت عال كي تسمعه الفتاة:

– إن العزيزة الصغيرة ذات خجل وخفر!

ثم التفت وقال لاولينين هامسا:

– إنها خجلانة منك أنت أيها النفور المتوحش!

وتجاهل اولينين هذا التعليق وسأله:

– لم أفهم ماذا تعني. ولماذا تضطر لمبارحة الدار حينما تقررون إقامة حفلة راقصة؟

– ذلك أن الحفلة أيها العزيز ستقام عند الفتاة اوستنكا، في منزل ربة الدار التي نزلت فيها. وأنا أدعوك لحضورها. وحفلات الرقص هنا كما تعلم لابد لها من صنع فطيرة كبيرة ومن حضور جمع من الفتيات.

وبدهشة سأله اولينين:

– ولكن ما الذي سنفعله في هذه الحفلة؟

فنظر إليه بيليتسكي وأقفل إحدى عينيه بطريقة ذات مغزى ثم طوح رأسه في اتجاه الكوخ الآخر الذي توارت فيه ماريانكا عن الأنظار وقال:

– أتسأل حقا ماذا سنفعل؟ دع التظاهر الكاذب!

فتجهم وجه اولينين. وخشي بيليتسكي أن يغضب فأسرع يترضاه قائلا:

– اسمع! أنا لا يمكن أن ينطلي عليّ هذا الكلام.

– أي كلام تعني؟

– أن تكون يا أخي معها في بيت واحد ولا يكون بينك وبينها شئ. إنها تحفة. آية من آيات الجمال. وثمرة من ثمرات الأنوثة الناضجة ما أجملها!

فهتف اولينين في حماسة:

– ما أجملها؟ إني لم أر في حياتي، ولا يمكن أن أتصور امرأة في الدنيا حازت من محاسن الجمال ما حازته هذه الفتاة!

فزادت دهشة بيليتسكي ونظر إليه متسائلا:

– وماذا إذن يحول بينك وبينها؟

– قد ترى الأمر أيها الصديق بعيدا عن التصديق. ولكن هذه هي الحقيقة وربي. إني منذ حللت هذه القرية قد جعلت بيني وبين جميع النساء سدا. ولست نادما على هذه الخطة. فلا خير في عقد صلات مع نساء من معدن غريب عنا. والشخص الوحيد الذي ربطتني به آصرة في هذا الإقليم هو العجوز بيروشكا، فعلى اختلاف عمرينا وثقافتينا وطبقتينا وكل شئ من المكونات للشخصية الاجتماعية، تربطني به هواية وحيدة مشتركة. فكلانا شغوف بشئ اسمه الصيد.

– رويدك! أتسأل ما الذي يجمعنا بهاتيك النسوة؟ يجمعنا بهن ما ركب في الذكر والأنثى من طلب الجنس الآخر. وما الذي يربطني أنا مثلا بامرأة من طراز أماليا ايفانوفنا؟ شئ واحد نطلبه عندهن معها اختلفت ألوانهن

وجنسياتهن! وقد تعترض على ذلك بأن حظهن من العفة ضئيل. وهذا صحيح. ولعله من الأفضل أن يكن هذا! وللظروف الحربية مقتصياتها..

فقال أولينين بانكار:

– أنا لا أعرف من هي أماليا ايفانوفنا. ويخيل إليّ أنها امراة من طراز لم يتفق لي الاتصال به في يوم من الأيام. فلا أعرف كيف أعامل من على شاكلتها. وأنا لا أعرف كيف أعامل امرأة لا أكن لها احتراما. أما أولئك القوقازيات فأنا احترمهن واحترم فيهن الفطرة النقية!

فهز بيليتسكي كتفيه في استخفاف وقال:

– احترمهن يا أخي ما شاء لك الاحترام! ومن ذا الذي يمنعك أن تشبع منهن احتراما، وتكتوي منهن حرمانا؟

ولم يلق اولينين بالا إلى تهكم صاحبه، لأن وجدانه كان قد استثير في اتجاه هذه المسألة، فاندفع يقول:

– لا أجهل إنني مختلف عن الناس. أعلم أني شاب. ولكن على أساس هذه المبادئ المباينة لمعظم الناس تبلورت حياتي. وليس في نيتي أن أنبذ هذه المبادئ الآن. ثم ينبغي أن تعلم أني لا يمكن أن أعيش في هذه المنطقة على نحو ما تعيش أنت، لأن طبيعتك مختلفة عن طبيعتي. ونظرتك إلى الناس مختلفة عن نظرتي. وثق أنني سعيد كل السعادة بهذا النهج الذي انتهجته في حياتي هذه، ولذا يسرني أن أرى في أولئك الفتيات شيئا آخر غير الذي تلتمسه أنت عندهن!

وكأنما كان بيليتسكي يسمع هذيان مجنون، فقد هز كتفيه وقال ضاربا

صفحا عن كل ما سمعه من اولينين:

– أقبل دعوتي على كل حال وتجشم المجئ الليلة إلى مسكني. فإنماريانكا ستكون بين الحاضرات. وسأتولى بطريقتي الخاصة عقد المعرفة بينكما يا أخيب من أنجبته المدرسة الحربية! تعال، وإذا وجدت أنك سأمان ففي وسعك أن تنصرف في أي وقت.

– إني بصراحة أشتهي الذهاب إلى هذه الحفلة. وليس السبب ما أخشاه منها، بل أخشى على نفسي الفتنة. فإن الإغراء شديد!

فصاح بيليتسكي في مجون:

– تعال ولا تخف، وسأتولى أنا السهر على عفافك! عدني بشرفك أن تأتي الليلة عندي.

– قلت لك أني أتمنى أن آتي. ولكني في الواقع لا أعرف بصورة واضحة ماذا سنفعل؟

– أف لك! ليس هذا من شأنك! عليك أن تحضر وكفي. أرجوك.

– ليكن. قد أحضر!

فضرب بيليتسكي كفا بكف، وقال:

– ما أعجب أمرك! حشد من أشد نساء الدنيا فتنة، يندر أن يجتمعن في مكان آخر على وجه الأرض في وقت واحد، ولسن بالمستعصيات، وفي وسط هذا الفردوس الأرضي تعيش راهبا!

وأراد اولينين أن يغير موضوع الكلام فقال:

سمعت أننا سنقوم قريبا بغزوة في بلاد التتار!

فضحك بيليتسكي وقال:

– لم أسمع بشئ من هذا.

واضطرب الحديث بينهما بعض الوقت ثم انصرف بيليتسكي.

* * *

ولما أزفت ساعة الأصيل بدأ اولينين يهتم بالتفكير في تلك الحفلة، لأن الدعوة التي تلقاها أقلقت خاطره، وأزالت عنه سكينة نفسه. إنه يشعر برغبة شديدة في الذهاب. ولكن تصوره لما يمكن أن يحدث في الحفلة جعل فكرة الذهاب تبدو لعينيه سخيفا للغاية، بل مزعجا إلى حد ما. لأن الحفلة لم يكن بين المدعوين إليها أحد من رجال القوقاز، ولا من النساء العجائز. وإنما هو جمع من شباب الضباط الروس، والفتيات القوقازيات الحسان الصغيرات السن. فماذا يمكن أن يجري في جو حفلة كهذه الحفلة؟ وكيف يبرر أمام نفسه وجوده هناك؟ وكيف يكون سلوكه بين هؤلاء الماجنين؟ وأية صلة يمكن أن تنشأ بينه وبين أولئك الصبايا القوقازيات؟

وأوحى إليه بكل هذه الخواطر أن بيليتسكي سبق له أن حدثه حديثا مستفيضا عن علاقات داعرة غريبة تنم تحت ستار من التحفظ الظاهري.

وأخذ يفكر في أن كوخا واحدا، بل ركنا واحدا من كوخ سيجمع بينه – في ذلك الجو الماجن المتحلل – وبين ماريانكا. فلابد له إذن من التحدث إليها. ولكنه استهول ذلك لأن هيبتها وحسنها الباهر يحيطانها في نظره بسياج لا يخرق.

– عجبا! ولكن بيليتسكي كان يتحدث عنها وعن تعريفه بها كأنما ذلك أمر ليس أيسر منه في الحسبان! أمن الممكن أن ينظر بيليتسكي إلى ماريانكا بهذه الاستهانة، ويعاملها بهذا الهوان؟ إن ذلك لمن أغرب الأمور! ومن الأفضل لي ألا أشهد بعيني شيئا كهذا. فتلك أمور فظيعة وضيعة يقتلني كمدا أن أراها. ثم ما جدوى هذا التبذل والمجون؟ ولكن ألا يحسن أن أرى بعيني ما سيحدث بالضبط؟ ألا يعنين أن أرى كيف سيعاملون ماريانكا، وكيف سيكون سلوكها معهم؟ ثم ألم ارتبط بشبه وعد بإزاء بيليتسكي؟

وأمام هذا الاضطراب والتردد غادر البيت، وفي نيته أن يتجول على غير هدى إلى أن يستقر على قرار. ولكن قدميه قادتاه بغير تفكير إلى البيت الذي ينزل فيه بيليتسكي، ووجد نفسه يطرق الباب.

والكوخ الذي يقيم فيه الأمير بيليتسكي لا يختلف في شئ تقريبا عن كوخ اولينين. فهو مرتفع عن الأرض بمقدار خمس درجات فوق أعمدة من الخشب وبه غرفتان. وفي الغرفة الأولى طنافس وأرائك ووسائد وأغطية، وقد نسق كل ذلك تنسيقا ينم عن ذوق جميل، على الطريقة القوقازية. أما الحجرة الأخرى الداخلية ففيها موقد كبير لطهو الطعام بني بالآجر، ومنضدة وأرائك وأيقونات. وبالقرب من ذلك السرير العسكري الصغير، وكذلك كيس الثياب الذي يستعمله الضباط. وقد علقت على الجدار أسلحة بيليتسكي، وصفت على المنضدة أدوات الزينة. وكان بيليتسكي عندما دخل اولينين مستلقيا على فراشه العسكري بثيابه الداخلية يطالع رواية "الفرسان الثلاثة" فلما دخل اولينين قفز من فراشه ورحب به ترحيبا جما ثم قال:

– إن المجموعة كلها منهمكة في إعداد الوليمة. أتدري ما هي المواد التي

صنعت منها الفطيرة؟ إنها مصنوعة من الدقيق الأبيض الفاخر المعجون بالقشدة ومحشوة باللحم والزبيب. ولكنك لن تتصور الواقع حتى ترى بعينيك الحركة الناشطة لإتمام كل شئ على أحسن وجه في فناء الكوخ.

وأطل الشابان من النافذة. فإذا هرج ومرج، وفتيات غاديات رائحات، وهن منهمكات بكل همة في أعمالهن الصغيرة. وصاح بهن بيليتسكي:

– ألم تفرغن من صنعها بعد؟

– حالا حالا!

وصاحت أخرى في دلال ومجون:

– ولماذا تسأل هكذا في لهفة؟ هل شعر جدي بالجوع؟

فانفجر الجميع ضاحكات متثنيات. وأقبلت اوستنكا إلى داخل الكوخ تطلب صحافا. وكانت فتاة غضة بضة لدنة قصيرة القامة متوهجة الوجنتين، وقد شمرت عن ساعديها الناضرين، فانقض بيليتسكي عليها وضمها إليه وقبلها بشراهة. فانفلتت منه الفتاة وهي تصيح متماجنة:

– ابعد عني وإلا وقعت مني الصحاف وتحطمت! ألست خائفا على الصحاف أن تتحطم؟ يا لك من..

ثم التفتت فجأة إلى اولينين الذي كان قابعا في الركن منزويا ينظر إلى ما يجري في استنكار، وقالت بمجون:

– وأنت؟ أليس من الأفضل أن تترك الخمول وتأتي لتساعدنا. ساعد الفتيات. فسوف لا تندم على مساعدتهن. ولكن لا تنس أن تحضر معك شيئا

من الحلوى لتطيب نفوسهن..

فغمز بيليتسكي بعينه وسألها:

– وهل حضرت ماريانكا؟

فاهتز حاجباها وهي تجيب:

– طبعا حضرت! وأحضرت معها الدقيق.

ولما انصرفت الفتاة التفت بيليتسكي إلى اولينين، وقال:

– ألا ترى أنه لو أخذ أحد هذه الفتاة اوستنكا فخلع عليها من الثياب الأنيقة، بعد أن تتعهدها المواشط بالتنظيف والتشذيب والصقل، لكسفت شمسها شمس كل حسناء من حسان موسكو؟ إني أذكر أن عميدا تزوج قوقازية منذ سنوات، فكانت حديث جميع الأوساط بجاذبيتها وسحرها. كان اسمها بورشتشيفا. لا أدري من أية قرية!

– إني لم أر بورشتشيفا هذه. ولكني على كل حال لا أعتقد أن زيا يصلح للقوقازيات أفضل من زيهن هذا.

وكلف أولينين مراسلة بيليتسكي بشراء كمية من الحلوى ليهديها إلى الفتيات. ثم جلس بجوار النافذة يشاهد ما يجري في الفناء. وتركه بيليتسكي ونزل إليهن. وعندئذ كثر صياح الفتيات وضجتهن، لأنه كان يمد يده على هذه وتلك، ويدغدغ جنوبهن، ويقرص خدودهن وأذرعهن التي شمرن عنها الأكمام، فبدت بلون الورد والشهد. ثم اجتمعت الفتيات عليه يضربنه ضاحكات، فعاد إلى الكوخ وهو يصرخ صراخا مصطنعا ويصيح:

– طردني من الجنة!

وبعد قليل حضرت أوستنكا ودعت الشابين في وقار مموه كي يذهبا إلى الكوخ الآخر حيث أعدت الوليمة على خير وجه ممكن ودخل الاثنان الكوخ فإذا الوسائد والارائك قد صفت بحذاء الجدران.. وغطيت المائدة بمفرش صغير ووضعت عليها قنينة كبيرة مملوءة بالجكير، وطبق من السمك المملح. وبجوار الموقد وقفت مجموعة من الفتيات حاسرات الرؤوس وقد ارتدين الصدارات المزركشة بالقصب، وهن يتغامزن ويتهامسن ثم ينفجرن ضاحكات. وتلفت اولينين يبحث بينهن عن ماريانكا، فوجدها واقفة بين تلك الباقة من الزهرات اليانعات الجمال. فأحس بالاستياء يخامر أعماقه، لالتقائه بمعبودته في مثل هذا الظرف الذي يكتنفه المجون وكأنما أراد أن ينتقم من نفسه لتورطه في هذا الموقف، فقرر أن يخلع العذار بقدر المستطاع، ويحذو حذو بيليتسكي في كل شئ.

لقد وجد في ذلك أضمن وسيلة لتجنب سخرية هذه المجموعة من الفتيات اللواتي يتوقعن ولا شك من شاب مثله أن يكون جريئا ساطيا متحللا من جميع الاعتبارات الأخلاقية. وهو إذا استطاع أن يغفر لنفسه الابتذال، فلن يستطيع تحمل سخرية الفتيات وازدرائهن إياه.

وتقدم بيليتسكي من المائدة وهو يتصنع الوقار. ولكن كان من الواضح أنه لا يشعر بحرج لفرط ثقته بنفسه. وقد بدأ يشرب كأسا مترعة من الخمر نخب اوستنكا، ودعا الجميع إلى شرب نخبها، فقالت اوستنكا:

– إن البنات عندنا لا يشربن الخمر!

ولكن فتاة من بينهن توارت وراء جارتها وصاحت:

– بل نشربها ولكن ليست صرفا، لأننا نمزجها بالعسل.

وفي هذه اللحظة حضر مراسلة بيليتسكي حاملا الحلوى. فأمره أن يأتي بمقدار من العسل. وسرعان ما جاء المراسلة بقدح كبير من الشهد. فتولى بيليتسكي مزج الخمر بالشهد، ثم جعل يصب بنفسه الخمر في الأقداح، كما أردف ذلك بأن نثر على المائدة الكعك الفاخر، وما إن انتهى، حتى أخذ يمسك الفتيات في جرأة، ويجلسهن إلى المائدة، ويقدم إليهن الكعك بنفسه.

واتجه اولينين بنظره نحو ماريانكا عن غير قصد، فأدهشه أن يرى كيف أن يدها البضة قد أطبقت على كعكتين لذيذتين من الكعك المطيب بالنعناع، وكعكة أخرى سمراء اللون، وكانت حيرى لا تدري ماذا تفعل بها؟

ودار الحديث في الحفلة متشعبا وكل يتحدث بما يحلو له، يستمر حينا وينقطع حينا آخر، رغم ما لوحظ على اوستنكا وبيليتسكي من انطلاق ورغبة في إشاعة المرح بين الجماعة، فآثر ذلك في اولينين مما جعله يضطرب ويحاول التفكير في موضوع يشترك به في الحديث، لأنه كان يشعر في قرارة نفسه أنه يثير فضول الجماعة بصمته وانزوائه، بل لعله اعتقد أنه بمسلكه أضحى موضع سخريتهم.

وظهر خجله واضحا إذ صبغت الحمرة وجنتيه، وخيل إليه أن ماريانكا كانت تشعر بالسآمة بل بالضيق، فقال يحدث نفسه:

– أغلب الظن أنهن يأملن أن نعطيهن شيئا من النقود. ولكن كيف نفعل هذا؟ وما هي أفضل وسيلة لتنفيذها والخروج من المأزق؟

الفصل العاشر

وفي بيليتسكي بوعده في التعريف بين ماريانكا وأولينين فقال:

– هل هذا يليق يا ماريانكا ألا تعرفين من ينزلون في دارك؟

فأجابت ماريانكا وهي ترمق اولينين بنظرة تنطوي على عتاب:

– وكيف لي أن أعرفه وهو لا يزورنا؟

فاحمر وجه اولينين خجلا وخفق قلبه خفقانا شديدا، وفي غمرة هذا الارتباك أنشأ يقول من غير تفكير:

– وكيف أدخل داركم وأنا أخاف أمك؟

– تخاف أمي!

– نعم أخافها. فقد زجرتني جزا عنيفا في المرة الوحيدة التي دخلت فيها بيتكم لاتفاهم على السكنى.

فضحكت ماريانكا، ونظرت إليه نظرة بجانب وجهها وقالت:

– وهل كان هذا كافيا لإلقاء الرعب في فؤادك؟

وكانت هذه أول مرة يرى فيها وجه معبودته كاملا، ورأسها عاليا، لأنها في جميع الأحوال السابقة كانت تغطي شعرها وجانبي وجهها بمنديل. أما الآن فقد ثبت بما لا يدع مجالا للشك أنها أجمل فتيات تلك القرية أما اوستنكا فهي صبية مليحة لدنة الجسم، ربعة القامة، وردية اللون، عيناها عسليتان ضاحكتان.

وثغرها يفتر دواما عن الابتسام. ولسانها لا يكف لحظة عن الثرثرة. في حين كانت ماريانكا على نقيضها. ليست خفيفة الظل جذابة فحسب، بل جميع جمالا حقيقيا. وقد يرى بعض الناس أن معالم وجهها غلامية أقرب إلى ملامح الرجال، ولا تخلو من خشونة اللفظ والإشارة، ولكن يغطي على كل ذلك ما وهبها الله من قامة رشيقة فارهة، وصدر ناهد، وشباب بض، وعينين لوزيتين تنطلق منهما النظرات كالسهام المسمية من بين أهداب وطفاء، ومن قوسي حاجبيها السوداوين ونادرا ما كانت تبتسم. فإذا ابتسمت كانت ابتسامتها بالغة الفتنة. وعندما لا تبتسم، تبتسم الصحة مترقرقة كالروض الضاحك في أوصالها كلها.

كانت جميع الحاضرات من الفتيات ذوات حسن. ولكن الجميع كانوا يحسون بأنها أجملهن. فتتوجه إليها الأنظار والأحاديث على الدوام. باعتبارها قطب الحفل. إنها الغروس أو الملكة المتوجة العزيزة الجانب. وكان بيليتسكي يبذل جهدا متصلا لإذكاء المرح والبهجة في حفلته وكان ذلك العبء واقعا على كاهله وحده. فاضطر إلى القيام بمهمة الحديث والثرثرة بلا انقطاع، وبين الحين والحين يرغم الفتيات على احتساء كأس، ويعابثهن ثم يلتفت إلى اولينين ويلقي إليه بالفرنسية تعليقات ماجنة على جمال ماريانكا، ويدعوها " صديقتك " ويستحثه على الاقتداء به في الهذر والهزل والمداعبة. ولكن اولينين كان يشعر بازدياد الحرج والارتباك والضيق فجعل يفكر في تعلة تبيح له الانصراف والافلات. وإذا بيليتسكي يقول لاوستنكا:

– من واجبك والحفلة في دارك أن تقدمي الكأسين إلى اولينين وإليَ. وإن تتوجي ذلك بقبلة من ثغرك الشهي.

وضحكت الفتاة وتثنت ثم قالت:

– تريدني أن أصنع ما نصنعه عندنا في الأفراح. ليكن. ولكن بشرط أن يضع كل من أقبله نقوطا في طبقي حسب الأصول.

وما إن سمع اولينين هذا الكلام منها حتى تولاه الخوف أن تقبله، فنهض لينصرف وهو يحدث نفسه قائلا:

– ما كان أغباني إذ جئت إلى هذه الحفلة التافهة

ودهش بيليتسكي. وقد رأى صاحبه يريد الانصراف في الوقت الذي بدأ فيه السرور الحقيقي، فصاح به:

– إلى أين أنت ذاهب يا هذا؟

فقال اولينين يراوغه:

– سأحضر جانبا من التبغ من بيتي.

ولكن بيليتسكي جذبه من يده وقال بالفرنسية:

– لا لزوم لذهابك. معي نقود. سأرسل من يشتري لك.

فتألم اولينين لهذا الإحراج وقال لنفسه:

– أما من سبيل إذن إلى مغادرة هذا المكان؟ ولكن ألا أستطيع حقا أن أسلك مسلك بيليتسكي؟ وما دام هذا حالي فلماذا حضرت منذ البداية؟ كان من واجبي ألا أحضر بأي شكل. ولكن ما دمت قد حضرت فليس من حقي أن أفسد على هؤلاء الناس متعتهم ومرحهم. ويجب أن أشرب الخمر معهم،

على طريقة أهل القوقاز متى لزم الأمر!

ومد يده إلى الكأس وكانت تتسع لملء ثماني كؤوس، فصب فيها الجكير ثم رفعها إلى فمه وشربها جرعة واحدة ونظرت إليه الفتيات وهو يتجرع الخمر بهذه الطريقة في عجب ممزوج بالخوف، لأنهن وجدن ذلك فوق طاقة أي إنسان. ثم لم يلبث أن سرى عنهن لما رأينه ثابتا في مكانه لا يترنح، وعندئذ ضحكن وقدمت اوستنكا إلى الشابين كأسين أخريين، فشرباها أيضا. ثم قبلتهما. فوضع كل واحد منهما روبلين فضيين في طبقها. فتناولت النقود وجعلت تشخشخ بها وتقول للفتيات:

ـ هيا يا بنات نطلق العنان للمرح والابتهاج. لا تضيقن على أنفسكن. هيا ولا تترددن!

فقال بيليتسكي يشجعن:

– فلتتقدم كل واحدة منكن في دورها لتقبلنا وتأخذ النقود!

ولما رآهن يضحكن ولا يتحركن قال لماريانكا:

– هيا ابدئي أنت يا ماريانكا. أسقينا وقبلينا؟

فرفعت يدها كمن تهم أن تضربه وقالت:

– نعم سأعطيكما قبلة لا يذهب أثرها سريعا!

فقالت فتاة أخرى:

– من هي التي تمانع في تقبيل جدنا؟

فهجم بيليتسكي على هذه الفتاة وقبلها، وهي تحاول عبثا أن تتخلص من قبضته. ثم التفت إلى ماريانكا وقال:

– ليس الأمر عسيرا كما ترين. هيا قدمي لي كأسا. وقدمي كأسا كذلك للرجل الطيب النازل ببيتك!

ثم أخذها من يدها وذهب بها إلى الأريكة، فأجلسها بجوار اولينين. ولم تقاوم ماريانكا مقاومة جدية، بل جلست بجواره ورمقته بنظرة طويلة تفيض زهوا ودلالا من عينيها اللوزيتين. فصاح بيليتسكي بالفرنسية:

– يا لها من امرأة! ما أجملها!

وفهمت ماريانكا من لهجة الكلام مغزاه التقريبي، فنطقت نظرتها إلى اولينين بالاعتزاز بحسنها الفتان ولم يشعر اولينين إلا وهو يطوق ماريانكا بين أحضانه ويهم بتقبيلها، فتخلصت منه بحزم، وكادت توقع بيليتسكي على الأرض. وقفزت بعيدا إلى ركن آخر من الحجرة. وكثر صياح الفتيات. وعندئذ قال بيليتسكي بصوت هامس شيئا ما للفتيات، فتسللن جميعا إلى الدهليز الخارجي وخرج هو معهن، وأغلق الباب من الخارج بالمفتاح وتركهما وحدهما.

فنظر إليها اولينين طويلا ثم قال:

– لماذا رضيت بتقبيل بيليتسكي لك ورفضت قبلتي؟

– هكذا مزاجي!

ثم لم تلبث أن ابتسمت وقالت:

– هو جدنا. قبلته شئ لا يهم.

ثم نهضت إلى الباب وجعلت تضربه بقبضتها وتصيح:

– لماذا أغلقتم الباب أيها الشياطين؟!

فنهض اولينين عن الأريكة واتجه إليها ووضع يده على كتفها وقال:

– لا بأس! لقد تخلصنا من ضجتهن! فلنمكث وحدنا قليلا.

فزوت الفتاة ما بين حاجبيها ودفعته في صدره دفعة قوية. وتبدى في وجهها الغاضب كل ما في مخيلة اولينين عن جمالها الجليل المهيب، فثاب إلى رشده، وشعر بالخزي الشديد لما أقدم عليه تحت تأثير الخمر، وجعل يطوق الباب بيديه ويصيح مناشدا بيليتسكي أن يفتحه. وعندئذ ارتفع صوت ضحك الفتيات من الخارج، فصرخ اولينين:

– ناشدتك الله يا بيليتسكي أن تفتح!! رحمة بي!

فانفجرت ماريانكا في هذه المرة ضاحكة ضحكة صافية وقالت:

– ما كل هذا الفزع؟ أخائف أنت مني؟

فقال ببساطة وصدق:

– الحقيقة أني خائف جدا. لقد تبينت أنك لا تقلين هولا عن أمك!

فنظرت إليه نظرة ذات معنى وقالت ضاحكة:

– ينبغي أن تصرف مزيدا من وقتك مع العجوز بيروشكا. فإنه حري أن يعلمك كيف توقع الفتيات في شراك هواك!

وارتبك، ثم سألها بغير تفكير وتدبر:

– وإذا حضرت لزيارتك في البيت؟

فأجابت بجد وهي تطرق رأسها:

– هذا موضوع آخر تماما. الزيارات في البيوت شئ لا غبار عليه..

وفي هذه اللحظة دفع بيليتسكي الباب فانفتح. وأسرعت ماريانكا لتزوغ من الباب لأن بيليتسكي حاول لمسها بذراعيه، فاحتك فخذها بساق أولينين. فسرت في جسمه رجفة قوية وقال يحدث نفسه:

– لقد كنت مخدوعا حين قررت لنفسي حياة جديدة تقوم على إنكار الذات والتضحية بكل شئ في سبيل الغير. لقد تبين لي الآن عن يقين أن الهدف الوحيد للإنسان هو إدراك سعادته الشخصية فلتذهب جميع تلك المبادئ إلى الجحيم!

وما إن استقر رأيه على ذلك، حتى اندفع بحماسته التي يمارس بها جميع خططه، فانقض على ماريانكا واحتضنها بكل عنف وقبل عنقها ووجنتها.

وذهل حينما رأى ماريانكا لا تغضب حينما غلبها على مقاومتها، بل انفجرت ضاحكة من قلبها، وأسرعت تختفي بين زمرة الفتيات الأخريات. وكان هذا هو ختام الحفلة. فخرج وهو يعجب من نفسية الفتيات وتناقض أحوالهن.

الفصل الحادي عشر

عاد اولينين إلى المنزل وقد ملكت عليه أحداث الحفلة مشاعره حتى جعلته في لحظة يقلب رأسا على عقب، ما كان قد وطن نفسه عليه من انتهاج مبدأ معين هو إنكار النفس، وجعل يحدث نفسه في الطريق يكفي أن أترك نفسي على سجيتها، فأصبح غارقا في حب هذه الحورية القوقازية التي تسلب كل ذي عقل عقله وأوى إلى فراشه وهذه الأفكار تتراقص في رأسه، وكان يظن أنها لا تلبث حتى تتبدد من مخيلته كما يتبدد البخار في الهواء فيعود إلى التمسك بأهداب المبدأ الذي وطّن نفسه عليه ويحيا الحياة التي كان يحياها، إلا أنه عبثا حاول ذلك، فقد رأى على غير وعي منه أن علاقته بماريانكا قد تطورت، وأنه لم يعد هناك حاجز يحول بينهما وأصبح أولينين يبدؤها بالتحية كلما التقيا.

وأراد صاحب الدار أن يحصل الإيجار، وقد نمى إلى عقله ثراء اولينين وكرمه وأريحيته، فدعاه إلى زيارته في كوخه، ولدهشة اولينين رأى ترحيبا بالغا من الزوجة، فتبدلت الحال غير الحال، وصار اولينين بعد تلك الحفلة يتردد على كوخهم في معظم الليالي ويطيل المكث إلى وقت متأخر من الليل.

وكانت حياته الظاهرة أنه يعيش كسابق عهده، ولكنه في قرارة نفسه ودخيلتها وجد أن كل شئ قد تغير فيه وراح يقضي سحابة أيامه في الغابة، فإذا حانت الساعة الثامنة أو نحوها وبدأ الغسق ينشر ظلاله، سار وحده أو بصحبة العم بيروشكا لزيارة مضيفه. وقد أصبح محبوبا من القوم حتى كانت تأخذهم الدهشة إذا غاب عنهم فيتفقدونه، وزاد من حبهم له أنه كان يدفع بسخاء ثمن

ما يحتسيه من خمر. أضف إلى ذلك ما اتصف به من هدوء واتزان ورزانة، وعندما كان فانيوشا يأتي له بالشاي، كان يجلس في ركن من الغرفة قرب الموقد، وكانت الزوجة العجوز لا تلقي إليه بالا، بل كانت تمضي في عملها كأنه لا يوجد في الغرفة انسان.

وكان الحديث يدور بين القوم وهم يحتسون الشاي أو الجكير، وكان في معظم الأحيان حول الشئون القوقازية عامة، أو عن الجيران أو عن روسيا، وكان اولينين هو الذي يبدأ الحديث والآخرون يسألون، وأحيانا كان يخلد إلى كتاب يقرأ فيه بينما كانت ماريانكا تجلس القرفصاء، طاوية قدميها كالعنز البرية، على المقعد الذي يجاور الموقد حينا أو في ركن آخر من أركان الغرفة حينا آخر، بيد أنها كانت لا تشترك في الحديث. وكان اولينين يرقب من طرف خفي عينيها ووجهها كما كان يسمعها وهي تتحرك أو تكسر بذور عباد الشمس. وكان يشعر في أعماقه أنها تنصت بكيانها كله عندما يتحدث، ويحس احساسا غريبا بوجودها وهو يقرأ لنفسه، بل كان يخيل إليه أنها تحدق النظر فيه، وكان إذا التقت نظراته بنظراتها المشرقة لزم الصمت على غير وعي منه، واكتفي بأن يرمقها بعينيه، فيغلبها الخجل وتخفي وجهها، فيتظاهر هو بأنه مستغرق في الحديث مع الزوجة، بيد أنه في الواقع كان يتنسم أنفاسها، وكان يتتبع كل حركة من حركاتها، وكل خلجة من خلجات نفسها مؤملا أن تعاود النظر إليه ومن غريب أطوار الفتاة أنها كانت تتودد إليه في حضرة الغير فإذا تصادف وكانا منفردين غلبها الحياء والخفر.

وفي بعض الأحيان كان يزورهم ولا تكون ماريانكا بالكوخ، ثم لا يلبث أن يطرق سمعه فجأة وقع أقدامها، ويلمح طرفا من قميصها الأزرق وهي تدخل

من الباب، وتدلف إلى وسط الكوخ، فتبتسم له عيناها ابتسامة متألقة رقيقة، تكاد لا تلحظها العين، فتشيع في نفسه مزيجا من السعادة والخوف معا ولم يك اولينين يضمر في نفسه شيئا من ناحيتها، أو يرغب في أمر، بيد أنه كان يشمله شعور غامض، وإحساس جارف بضرورة وجودها بالنسبة إليه، وأن الحياة بدونها شئ تافه.

واندمج اولينين في حياته القوقازية وأوغل فيها، حتى لكأن ماضيه صفحة محيت سطورها من سجل حياته، ولم يلق بالا أو يهتم بالمستقبل، خاصة ما لا يتصل بالمحيط الذي يعيش فيه. وكان يضيق بالخطابات التي كانت تأتيه من أقاربه وأصدقائه، إذ كانت تحمل إليه أنهم كانوا يعدونه رجلا ضالا، في حين أنه كان يرمي بالضلالة من لا يعيش على نهجه.

واعتقد اعتقادا راسخا أنه لن يندم على الخروج عن بيئته الماضية التي يحوطها الجاه والثراء، واسقراره في هذه القرية مفضلا هذه الحياة التي تتميز بالعزوف والطرافة.

لقد أصبح الآن يحس بقدر من الحرية والرجولة يزداد يوما بعد يوم، وتغيرت صورة القوقاز في مخيلته ولم يأنس فيه قط شيئا مما صورته له أحلامه، ولا وجد شيئا من الأوصاف التي سمع بها أو قرأها. وقال يحدث نفسه:

– ليس الفارق هو الزي القوقازي أو الوهاد، أو الأبطال والأوغاد إنما الناس يحيون على سنن الطبيعة، يولدون، ويعيشون ويتزوجون يقاتلون، ويأكلون، ويشربون ويموتون من غير أن يحد من حريتهم قيد، إلا ما تفرضه الطبيعة على الشمس والعشب والحيوان والشجر. تلك هي شريعتهم ولا شريعة أخرى يدينون لها.

وإذ وصل به التفكير إلى ذلك، وتجلى أمام ناظريه ما ينعمون به من سحر وجمال وحرية، وقارن نفسه بهم، أثار ذلك في نفسه الرثاء لحاله.

وبلغ به الأمر أن فكر جديا في أن ينبذ ماضيه، بل يمحوه وينخرط في زمرة القوقاز، ويتزوج قوقازية – عدا ماريانكا فقد تخلى عنها للوكاشكا – ويعتز بصداقة بيروشكا ويخرج معه للقنص وصيد السمك، ويشارك القوقاز في حملاتهم، وحلق به التفكير إلى حد أن ساءل نفسه:

ماذا يحول بيني وبين ما أريد؟ ولماذا أنتظر؟ هل أخشى شيئا أعتقد أنه عين الصواب؟ هل رغبتي أن أغدو قوقازيا بسيطا أعيش مع الطبيعة، لا أضر أحدا بل أسدي الخير للغير، أشد حماقة من أحلام حياتي الماضية في أن أصبح وزيرا أو قائدا؟

على أنه أحس في أعماقه صوتا يهيب به أن يتروى ولا يتخذ قرارا، وكان وازعه أنه لا يستطيع أن يعيش مثل بيروشكا ولوكاشكا، لأن نظرته إلى السعادة تختلف عن نظرتهما.

كان تردده بسبب ما تخيله من أن السعادة في إنكار الذات، كما أن الجميل الذي أسداه إلى لوكاشكا كان يبعث في نفسه الغبطة والسرور، وأنه آلى على نفسه أن يتاح له أن يبذل نفسه في سبيل الآخرين، وظن في نفسه القدرة على أن ينهج نهج بيروشكا، فلا يلبث أن يراجع نفسه ويتشبث بالتعلق بفكرة إنكار الذات عن وعي وتدبر، وعلى ضوء ذلك كان ينظر إلى الناس كافة وإلى سعادة الآخرين نظرة متزنة حافلة بالعزة والفخار.

الفصل الثاني عشر

وجاء موعد جني العنب، وحضر لوكاشكا ممتطيا صهوة جواد، فهو فارس ولا شك، وقصد توا إلى لقاء اولينين. وكان يبدو في هذه اللحظة أكثر حماسة منه في أي وقت آخر وما إن رآه اولينين حتى بادره بالتحية ثم سأله مازحا:

– أهلا، هل عزمت على الزواج؟

ولكن لوكاشكا تجاهل هذا السؤال، ثم قال:

_ لعله يكون من بواعث سرورك أني بادلت بجوادك في الناحية الأخرى من النهر! وهذا هو الجواد، ويا له من جواد! إنه من أصائل الجياد، من فضيلة كاباردا من حظيرة لوف ذات الجياد النادرة، وخبرتي بها كبيرة.

واختبر الاثنان الجواد الجديد فسارا به في نصف دائرة حول الفناء، وكان الجواد عريقا في الأصالة حقا، ولونه بين الأسود والأحمر، ذا جسم عريض طويل، وشعر ناعم لامع، وذيل كثيف يمتاوج شعره تماوج الحرير، أما معرفته وجمته الناعمتان البديعتان فخير دليل على أنه من أصائل الجياد. وله ظهر عريض سوي وأعجب اولينين بالجواد، لأنه لم ير من قبل نظيرا لجماله في بلاد القوقاز. وقال لوكاشكا وهو يربت عنق الحصان:

– لو رأيت خطواته! إنه لذكائه يعدو وراء سيده!

فسأله اولينين:

– وكم دفعت في هذه المبادلة؟

فأجاب لوكاشكا وهو يبتسم:

– لقد أخذته من صديق عزيز مثلك فلم يدقق معي ولم يساومني.

– يا له من جواد بارِع الحسن، نادر بين الجياد! كم يكفيك ثمنا له؟

فأجاب لوكاشكا مزهوا:

– عرضوا عليّ مائة وخمسين روبلا، ولكني سأقدمه لك دون مقابل، حسبي كلمة منك، يصبح لك، وأنا يرضيني أي جواد من عندك يعينني على أداء خدمتي.

– كلا. هذا لا يمكن.

فقال لوكاشكا وقد أخذ يفك حزامه ويخرج منه خنجرا من خنجرين معلقين به.

– هل يتفضل صديقي بقبول هذه الهدية؟ لقد جئتك بها من الضفة الأخرى للنهر.

– آه شكرا ياعزيزي.

ثم عاد لوكاشكا يقول:

– ستوافيك أمي بنفسها ببعض العنب.

فقال اولينين:

– لا داعي لكل هذا وإذا كان بيننا حساب فقد نسويه في يوم من الأيام، ومصداقا لذلك فإنني لم أعرض عليك نقودا في مقابل الخنجر.

– وهل كان من الممكن أن تعرض عليّ نقودا وأنا صديقك الحميم؟ إن صلتي بك تماثل صلتي بكرايخان. وما كان من الرجل إلا أن أخذني إلى داره وطلب مني أن أختار ما أشاء من محتوياته، فاخترت هذا السيف.

ودخلا بعد ذلك الكوخ وشربا كأسا من الجكير. ثم سأله اولينين:

– هل تنوي أن تقضي في القرية مدة من الزمن؟

– كلا. فأنا لم آت إلا لتوديعك، لأنهم ألحقوني بسرية أخرى مقرها الضفة الأخرى من نهر ترك. وسأذهب الليلة إلى هناك مع زميلي نازركا.

– ومتى يتم زواجك؟

– سأعود يوما لإتمام الخطبة، ثم أرجع إلى السرية.

– أليس في نيتك أن ترى خطيبتك قبل الرحيل؟

– وما جدوى أن أراها؟ ويا حبذا لو جئت إلى مكان سريتنا في يوم من الأيام. فالخنازير الوحشية في تلك المنطقة كثيرة جدا. وسأخرج لصيدها معك.

وركب لوكاشكا جواده وانطلق من غير أن يزور ماريانكا. وكان تازركا ينتظره في بعض الطريق. فلما لقيه سأله هل سيزور عشيقته يانكا. ففكر لوكاشكا قليلا، وقال له:

– خذ أولا جوادي إليها لتطعمه وسأذهب أنا لشأن لي وإن تأخرت قليلا فلا تقلق لأني سأبلغ السرية قبل طلوع النهار.

– ألم يمنحك طالب الحربية شيئا آخر؟

– لقد أعطيته خنجرا خشية ان يطلب مني الجواد وفاء لديه!

وتسلل لوكاشكا إلى الفناء ومر تحت نافذة اولينين نفسها. ثم وقف تحت نافذة كوخ حامل العلم. وكان الظلام حالكا في الفناء فشاهد ماريانكا في قميصها الوردي تمشط شعرها الجميل استعدادا للنوم. فهمس يناديها. فتهلل وجهها وأسرعت ففتحت النافذة وأطلت منها وقد تقسمها الخوف والسرور.

– ماذا جاء بك؟

– افتحي! لن أمكث إلا لحظة واحدة. كاد يهلكني الشوق!

وأخذ رأسها بين يديه من خلال النافذة وقبلها.

– لن أفتح! مستحيل! هل ستبقى طويلا في القرية؟

فانطلق يقبلها باصرار ثم قال:

– لا أستطيع أن أطوقك بذراعي على خير وجه وأنت في النافذة.

وفي هذه اللحظة ارتفع صوت الأم تسأل ماريانكا من الذي معها فغاص منبطحا على الأرض، وقالت ماريانكا لأمها:

– إنه لوكاشكا جاء يسأل عن أبي.

– دعيه يدخل.

– لقد انصرف لأنه كان متعجلا.

وفعلا مرق لوكاشكا من الفناء، واتجه إلى منزل يانكا. ولكن اولينين لمحه وهو يمر أمام النافذة. وبعد قليل كان الجنديان في طريقهما إلى السرية، فقال

نازركا للوكاشكا:

– لقد قالت لي يانكا أن طالب الحربية بدأ يتردد على كوخ حامل العلم. وأن العجوز بيروشكا يزعم أن طالب الحربية أعطاه بندقية ليقوم بالوساطة بينه وبين ماريانكا.

فصاح لوكاشكا غاضبا:

– يا له من كذاب أشر! إن الفتاة ليست لعوبا. والله إن لم يكف هذا الشيخ الخرف لأقتلنه.

وأخيرا جاء اليوم الذي تحدد للخطبة، وقد أقيمت الحفلة في منزل حامل العلم، وقد عاد لوكاشكا إلى القرية، ولكنه تخلف عن زيارة اولينين، الذي لم يذهب بدوره لحضور الحفلة رغم أنه دعي إليها، فقد شمله حزن لم يعرف له مثيلا منذ حل بالقرية القوقازية وكان لوكاشكا وهو يرتدي أبهى حلة يمر بصحبة أمه قبيل المساء، وقد انتابت اولينين الهواجس لما أظهره لوكاشكا حياله من عدم مبالاة، فلزم اولينين كوخه وشغل نفسه بتسجيل مذكراته في يوميات، وكتب يقول:

"لقد قدحت ذهني بالتفكير في أمور كثيرة، وانتابني الكثير من التغير والتبدل، وقادني التفكير إلى المثل المأثور الذي مؤداه: "إن طريق السعادة أن يحب الإنسان، يحب حبا خالصا يقوم على التضحية وانكار الذات، يحب جميع المخلوقات، يبذر الحب في كل مكان وفي كل اتجاه، وقد رعيت بهذه الطريقة فانيوشا وبيروشكا وماريانكا".

وما إن أتم هذه العبارة حتى دخل عليها بيروشكا الذي كان بادي

السعادة، وكان اولينين قد زاره منذ بضع ليال، فرآه يسلخ جثة خنزير برى بسكين صغيرة، وقد لاحت على وجهه امارات البشر والسعادة، وكلابه – ومنها ليام كلبه المدلل – تتبعه بجواره ترقبه وهي تهز ذيولها، وصغار الصبية ينظرون إليه من خلال السياج وقد كفوا عن معاكسته، أما جاراته فقد أخذن يحيينه، وأحضرت له إحداهن قدحا من الجكير وقدمت له أخرى قشدة متخثرة وأتته ثالثة ببعض الدقيق.

وجلس بيروشكا في اليوم التالي في مخزنه وثيابه ملوثة بالدم، وأخذ يوزع لحم الخنزير، ويقبض الثمن نقدا أو خمرا، يكسو وجهه إشراق وكأنه يقول:

– لقد حالفني الحظ بهذا الخنزير البري، وهأنذا من أجله يسعى الناس إلي.

وكانت مكافأته على ذلك ان ظل يشرب أربعة أيام لم يغادر فيها القرية، حتى أنه وجد ما يشربه في حفلة الخطبة أيضا وعندما أقبل على اولينين كان مفرطا في الشراب، متورد الوجه، مهوش اللحية، ولكنه كان يرتدي صدرة حمراء جديدة موشاة بشرائط ذهبية، وكان يحمل معه قيثارة روسية حصل عليها من الضفة الأخرى للنهر، وكان قد وعد اولينين بهذه الزيارة وساءه أن يجده مقبلا على الكتابة على غير عادة.

وإذ رآه على هذه الحال همس قائلا:

– أكتب! أكتب يا صديقي!

وكأنما خيل إليه أن وحيا قد هبط على الفتى يسجله على الورق. فلا ينبغي أن يحول دون ذلك، فجلس في رفق وهدوء على الأرض، وكانت هذه مكانه المفضل إذا أفرط في الشراب.

ونظر إليه اولينين، ثم أمر بإحضار شئ من الخمر. ولكنه استمر في الكتابة، وقد وجد بيروشكا أنه لا يستسيغ الشرب وحيدا وقد كانت به رغبة في الحديث، فقال:

– حضرت حفلة الخطبة، يا لهم من ملاعين، عافتهم نفسي، فجئت إليك!

فسأله اولينين وهو يواصل الكتابة:

– كيف حصلت على هذه البلاليكا؟

فأجابه الشيخ بكل هدوء:

– من الضفة الأخرى للنهر يا صديقي، إنني بارع في العزف عليها، أجيد كافة الأغاني، أغاني التتيار أو القوقاز، أو السادة أو الفلاحين.

فنظر إليه اولينين مبتسما ثم واصل الكتابة. وشجعت ابتسامته الشيخ فقال في جد:

– كفي كتابة يا صديقي! كف عنها وخبرني عن خبيئة نفسك، لقد أساء إليك بعض الناس، دعهم وشأنهم، احتقرهم، ماذا ترجو من الكتابة؟

وأخذ الشيخ ينقر على الأرض بأصبعه مقلدا اولينين، وقلب سحنته معبرا عن ازدرائه قائلا:

– ماذا ترجو من تسجيل المغالطات؟ أجدر بك أن تلهو وتمرح فتكون رجلا!

فانفجر اولينين ضاحكا، فضحك بيروشكا، وفجأة انتصب واقفا وأخذ

يعزف انشودة تترية.

– ماذا تكتب أيها الصديق العزيز؟ انصت إلى ما أغنيه، فإنك في القبر لن تسمع ألحانا، دع الهم وامرح!

وأنشد أغنية من تأليفه تصحبها رقصة، وهزته النشوة، فجعل يقفز على حين غرة، وراح يرقص في أرجاء الغرفة.

وكان يقصد من ذلك أن يطرب اولينين، ولكنه بعد أن شرب الكأس الثالثة من الجكير، تمثلت أمام ناظريه أيامه الخوالي، فارتجف صوته في غمرة أغنية محببة إلى قلبه فكف عن الغناء، ولكنه واصل النقر على أوتار البلاليكا، وأخيرا قال:

– أواه يا صديقي!

وعندما التفت إليه اولينين وجده يبكي، فأخذته الدهشة إذ رأى الدموع تنهمر على خده، وقد فاضت شجونه فكف عن العزف وقال كأنه يناجي نفسه:

– آه! يا أيام شبابي، لقد وليت ولن تعودي!

ثم صرخ فجأة دون أن يكفكف دموعه:

– اشرب! ما بالك يا تشرب! كأنك قطعت ما بينك وبين الخمر!

وما إن انتهى بيروشكا من ترديد أغنية شجية، حتى تناول – فجأة – بندقيته، وكانت معلقة على الجدار، وهرع إلى الفناء وأطلقها، ثم راح ينشد مرة أخرى بصوت أشد حزنا، وأخيرا كف عن الغناء.

وتبعه اولينين وتطلع إلى السماء وقد رصعتها النجوم، ونظر في اتجاه ومضات الطلقات، وكانت دار حامل العلم تموج بالأضواء والأصوات، وتتزاحم الفتيات عند المدخل والنوافذ، ويهرعن رائحات غاديات بين الدار والكوخ الصغير، وأخذ بعض القوقاز يتدافعون، وهم يسعلون مرددين صدى من أغنية بيروشكا.

وسأل اولينين الشيخ:

– لماذا لم تبق في حفلة الخطبة؟

فغمغم الشيخ، وكان واضحا أن أمرا قد أساءه هناك:

– دعك منهم! دعك منهم! إني أكرههم! تبا لهم! لنعد إلى الكوخ، وندعهم يمرحون، لنخرج نحن وحدنا.

ثم دخل اولينين الكوخ وسأل بيروشكا:

– هل لوكاشكا سعيد؟ ألا يأتي لزيارتي؟

فهمس الشيخ قائلا:

– من! لوكاشكا؟ لقد وشوا بي عنده، وقالوا أنني أصل بينك وبين حبيبته! ولكن ما قيمة ذلك؟ إذا أردنا الفتاة فستكون لنا! تغدق عليها المال فتكون لنا! سأدبر الأمر، وإني جد فاعل.

– كلا أيها الصديق، إن المال لا يجدي إذا كانت لا تحبني، وأرجوك ألا تتكلم هكذا!

فغلب البكاء بيروشكا وقال من خلال عبراته:

– إنهم لا يحبوننا.. أنت وأنا.. فنحن يتيمان.

وفي هذه الليلة شرب اولينين أكثر مما ألف وهو يستمع إلى كلام الشيخ، ثم حدث نفسه قائلا:

– إذن فصديقي لوكاشكا يرفل بالسعادة الآن.

ولكن الحزن كان يعتصره، وقد أفرط الشيخ في الشراب حتى وقع على الأرض، فاضطر فانيوشا إلى استدعاء الجنود لمعاونته في جر الشيخ إلى الخارج، وقد أخذ منه الغضب لسوء مسلك الشيخ الصياد.

الفصل الثالث عشر

في هذه الفترة من السنة، وبالتحديد في شهر أغسطس، والسماء خالية من الغيوم، وأشعة الشمس ترهق الأنفاس، والرياح الساخنة تثير عاصفة من الرمال التي تكاد تصهرها حرارة الشمس، تنبعث من الكثبان وتحملها في الهواء فوق الأشجار والقرى، وقد كسا الغبار العشب وأوراق الشجر، وكان الماء قد انحسر عن نهر نرك منذ أمد بعيد، وسرعان ما أخذ يغيض من البرك، وكنت تسمع رشاش الماء وأصوات البنين والبنات وهم يستحمون، وكانت الماشية تهرب إلى الحقول، والوحوش تفر إلى التلال القائمة وراء النهر – نهر ترك – وقد احتشدت الهوام والبعوض، في سحب كثيفة فوق القرى، وكللت قنن الجبال بغلالة من الضباب، وقد غدا الهواء خانقا.

في هذا الجو سرت إشاعة أن الأبركة قد عبروا النهر الذي ضحل ماؤه في ذلك الوقت، وأخذوا يعيشون في هذا الجانب، وفي هذا الوقت أيضا كان القرويون يتجمعون في حقول البطيخ والكروم، التي غطاها عشب كثيف أخضر فصارت في ظل رطيب.

وكانت عناقيد العنب تطل عليك من بين الأوراق مثقلة بحملها، وسارت العربات تطرقع في تمهل، وقد علتها أكداس من العنب الأسود، وعلى الأرض عناقيد عصرتها العجلات، والأولاد في ملابسهم الملطخة بعصير العنب يجرون وراء أمهاتهم.

أما الفتيات، وقد عصبن رؤوسهن بالمناديل حتى عيونهن، فكن يسقن الثيران المشدودة إلى العربات، وكان الجنود، عند مرورهن، يطلبون شيئا من العنب، فيتسلقن العربات ويملأن أيديهن ويلقين به للجنود.

وقد بدأت بعض الأسر في عصر الثمار، وتشبع الهواء برائحة قشور العنب، وامتلأت الأحواض الحمراء القانية بالعصير، وقد شمر العمال سراويلهم ولطخ العصير أرجلهم، وأخذت الخنازير تتمرغ في القشور، وتكدست سقوف الأكواخ بالعناقيد المعدة للتجفيف، فتجمعت حولها الغربان تلتقط الحب.

وكان القوم يجمعون ثمارهم وهم في غمرة من الفرح، وكان المحصول وفيرا كالمعتاد، فكانت تنبعث الضحكات من كل مكان، ممتزجة بالغناء والمرح وأصوات النساء ذوات الثياب الزاهية الألوان.

وقد جلست ماريانكا في وقت الظهيرة بكرمة الأسرة تظللها شجرة خوخ، تخرج غداء الأسرة من تحت العربة، وجلس حامل العلم أمامها مفترشا غطاء جواد، وراح يغسل يديه، وخرج أخوها الصغير من البركة وهو يلهث منتظرا غداءه، وأخذت الأم تعد العنب والسمك والقشدة والخبز على منضدة، وكان الجو قائظا، وغشيت الكرمة رائحة كريهة، وانطلقت الريح قوية تهز رؤوس الأشجار المتناثرة هزات رتيبة، ورسم حامل العلم علامة الصليب، ثم تناول ابريقا من الجكير وشرب، ثم ناوله إلى المرأة العجوز، وكان يرتدي قميصا حله عند عنقه فكشف عن صدره الأشعث، وكان البشر يكسو وجهه النحيل، ولم يبد أي حركة أو كلمة تشي بخسته، فقد كان يتظاهر بالبشاشة وقال وهو يمسح لحيته المبللة:

– هل ستنتهي من القطفة التي وراء الحظيرة الليلة؟

فأجابت زوجته:

– ربما إذا لم يعقنا الجو.

ثم اردفت قائلة:

– إن آل دمكين لم ينتهوا بعد من جني نصف المحصول، أما اوستنكا المسكينة فتعمل بمفردها وتنهك قواها.

فقال الشيخ مزهوا:

– وماذا تنتظرين منهم؟

ثم قالت المرأة العجوز وهي تناول الإبريق للفتاة:

– هاك، وخذي جرعة يا حبيبتي ماريانكا.

ثم اردفت:

– سنحصل من ثمن هذا المحصول، إن شاء الله، على ما يكفي نفقات حفلة الزفاف.

وعندئذ قال الصول بصوته الأجش:

– ليس قريبا يوم الزفاف.

وإذ سمعت ماريانكا ذلك طأطأت رأسها، وقالت الزوجة:

– ولماذا؟ لقد تم الإتفاق ولم يعد لدينا متسع من الوقت.

ولكن حامل العلم اعترض قائلا:

– علام العجلة؟ كل شئ مرهون بوقته، ما يهمنا الآن هو جني المحصول!

وإزاء ما رأته الزوجة من غبائه، أدارت دفة الحديث قائلة له:

– يا له من جواد ليس له مثيل، لقد بادله بالجواد الذي أهداه إليه ديمتري اندريفيتش!

– إنني لم أره، لقد تحدثت مع فانيوشا، وعلمت منه أن سيده تلقى ألف روبل أخيرا.

ففغرت العجوز فاها دهشة، وقالت:

– ما أعظم ثراءه! إنه في نعيم مقيم.

وكان جو الأسرة ينم عن السعادة، وبعد أن وضعت ماريانكا بعض العشب للثيران، أرادت أن تلتمس بعض الراحة فطوت صدارها واتخذت منه حشية ثم استلقت تحت العربة على العشب، وقد عصبت رأسها بمنديل، ولفها قميص زادها فتنة، وغمرها موجة من الضيق نم عنها اتقاد وجهها، وانفراج شفتيها على غير إرادة منها، وقد أخذ صدرها يعلو ويهبط في تنفس عميق.

ولا عجب فقد كان هذا موسم العمل والجهد المتواصل، فكانت تنهض مع الفجر لتقوم بالأعمال المضنية، من العناية بالماشية وتسريح الثيران والذهاب بها إلى الكروم، حيث تقضي سحابة اليوم في قطفها، وخلال كل ذلك كانت لا تنال من الراحة إلا ساعة أو بعض ساعة، وعندما يحل المساء تعود إلى القرية مشرقة وكأنها لا تحس نصبا، فتتناول بعضا من بذور عباد الشمس وتذهب

لتلهو مع بعض الفتيات.

فإذا بدأ الغسق عادت وتناولت عشاءها مع الأسرة، ثم ذهبت إلى رف الموقد حيث تنصت إلى حديث الساكن يغمرها شعور بالغبطة إلى أن يغلبها النعاس فتنام نوما حالما.

وهكذا كانت تمر بها الأيام، ولم تكن الفتاة قد رأت لوكاشكا منذ يوم الخطبة، وكانت تنتظر يوم الزفاف في هدوء وتعقل، ولكنها شعرت بالطمأنينة نحو اولينين، وكان يغمرها شعور هانئ كلما لمحت نظراته الوالهة.

* * *

همت ماريانكا أن تنام، رغم حرارة الجو، ورغم الهوام المنتشرة، ورغم تقلب أخيها الذي لا يفتأ يدفعها وهو إلى جوارها. وفجأة أقبلت اوستنكا وهي تلهث من الجري ودلفت بسرعة تحت العربة وأخذت مكانها مستلقية بجوار ماريانكا.

وما إن استقر بها المقام تحت العربة حتى قالت:

– ليس أمامكن سوى النوم أيتها الفتيات! تخلدن إليه! مهلا، فليس يكفي ما تعلمتن.

وبغتة أخذتها الحمية فانتصبت قامتها، وتناولت بعض أغصان الشجر، وثبتتها في عجلات العربة، كما علقت صدارها عليها، ثم أهابت بالفتي الصغير أن يترك المكان قائلة له:

– هل يليق بك أن تبقى مع الفتيات؟

فلم يسع الفتى إلا أن غادر المكان، فخلا الجو لاوستنكا وصديقتها

فطوقت اوستنكا ماريانكا بذراعيها وراحت تغمر خديها وعنقها بالقبلات، وأخذت تردد بين الضحكات:

– حبيبي... حبيبي!

فقالت ماريانكا وهي مأخوذة تحاول تخليص نفسها منها:

– أهذا ما تعلمته من جدي.. حسن؟

ثم قهقهتا في ضحك عال بعث الضيق في أم ماريانكا فصاحت:

– اسكتا.

فعلقت اوستنكا على ذلك قائلة:

– أهي الغيرة ما تدفعك إلى هذا؟

فأردفت الأم:

– هذر، نريد أن ننام! ما ذلك الأمر الجلل الذي دفعك إلى المجئ؟

– ستعلمين السبب، فصبرا.

فسألتها ماريانكا وهي تهض مستندة على مرفقها وتصلح من شأن منديلها:

– إذن ما الخبر؟

– أمر هام يتعلق بالساكن عندكم

فقالت ماريانكا بعدم مبالاة:

– لا أظن أن هناك ما يستحق المعرفة.

فما كان من اوستنكا إلا أن لكزتها بمرفقها وقالت وهي تضحك:

– كم أنت ماكرة! أيزوركم؟

فتورد وجه ماريانكا لهذا السؤال وأجابت:

– نعم يزورنا، وماذا في ذلك؟

– إنني فتاة ساذجة بطبعي، لا أستطيع كتمان أمر! ولماذا؟!

وظهر عليها التفكير وتورد وجهها المشرق ثم أردفت:

– إنني أهيم به حبا!

– أتعنين جدي؟

– أجل!

– ولكنها خطيئة!

– آه يا ماريانكا! متى تنعم بالمتعة إن لم يكن الآن ونحن خاليات، فحين نتزوج سننجب الأطفال وتستغرقنا الهموم والأعمال. وهل تظنين أنك ستنالين متعة بعد أن يتم زواجك؟

– الزواج في حد ذاته متعة وسعادة.

– حدثيني بما حدث بينك وبين لوكاشكا؟

– ماذا حدث بيننا؟! تقدم لخطبتي. وأراد أبي ارجاء الزفاف، ولكننا سنتزوج في الخريف.

– ماذا قال لك؟

– ماذا تظنين أن يقول؟ قال إنه يحبني، بل يهيم بي وألح عليّ أن أذهب معه إلى الكروم!

– طلبه هذا يدل على الصفاقة، طبعا لم تجيبيه إلى طلبه، إنه جرئ، فخر القرية، يشيع المرح حوله حيثما كان. لقد عاد كبركا أمس وقال فيما قاله أنه معجب بجواد لوكاشكا.. إنني أعتقد يا عزيزتي أنك أصبحت شاغل فكره وعقله... ماذا قال لك أيضا؟

– تمل وترجاني السماح له بالدخول.

– وهل سمحت له؟

– هل تتصورين ذلك؟! بل هل يدور بخلدك أن أسمح له؟

– ولكنه شاب خفيف الروح، وما من فتاة ترفضه إذا رغب فيها!

– ليذهب إلى الشيطان! ليذهب إلى الفتيات إذا شاء!

– ألا تأخذك به شفقة؟

– وهل معنى الشفقة أن أسمح له بالعبث. إنه خطيئة!

وارتمت اوستنكا على صدر صديقتها في حركة تمثيلية وضحكت وقالت، وهي تدغدغها:

– ألا تحبين السعادة أيتها الساذجة؟!

ولكنماريانكا قالت، وقد أشرق وجهها بالضحك:

– ماذا دهاك؟ دعيني!

وانطلق صوت العجوز تنهرهما عن ذلك العبث.

وعادت اوستنكا تقول:

– ترفضين السعادة! ولكن الحظ يحالفك، الجميع يحبونك رغم مناعتك، لو أنني في مكانك لأدرت رأس نزيلكم، فقد لاحظت وأنتم في داري أنه يلتهمك بعينيه، ما أعظم ثراءه وهداياه، يقولون أنه أغنى الروس وأن لديه عبيدا لا حصر لهم.

وفكرت ماريانكا لحظة ثم قالت مبتسمة وهي تجز بأسنانها:

– لو تعلمين.. لقد قال لي مرة: تمنيت لو أنني كنت قوقازيا مثل لوكاشكا، فما الذي كان يعنيه بذلك يا ترى؟

لقد ألقى إليك بأول هاتف من قلبه.

وكأنما سبحت ماريانكا في شبه غيبوبة، فمالت برأسها على صدارها المطوي وأحاطت كتف اوستنكا بذراعها، ثم أغمضت عينيها، ولاذت بالصمت برهة، ثم قالت في نبرة حالمة:

– كان يرغب في المجئ إلى الكرمة اليوم، حيث دعاه أبي..

ثم أسلمت عينيها للنوم.

الفصل الرابع عشر

من وراء شجرة الكمثرى التي كانت تحتها العربة طلعت الشمس وأخذت تصب حرارتها على وجهي الفتاتين النائمتين. فاستيقظت ماريانكا، وأخذت تسوي منديلها. وحانت منها التفاتة، فرأت أولينين يتحدث مع أبيها. وبندقيته على كتفه. فنبهت اوستنكا إليه وهي تبتسم وكان اولينين يتلفت حواليه، وهو يكلم أباها، وقد أقلقه ألا يرى ماريانكا، لأن الغصون كانت تحجبها. ثم قال:

– ذهبت أمس فلم أجد شيئا.

فقال حامل العلم وقد غير لهجته في الحديث:

– اذهب ناحية هذه الكرمة المهجورة، فهناك الكثير من الأرانب البرية.

وكأنما بعث هذا الحديث الضيق في الزوجة فقالت في شبه تهكم:

_ الأجدر بك أن تعاوننا في عملنا، فذلك خير من صيد الأرانب.

ثم أردفت ذلك بأن صاحت بالفتاتين أن تنهضا. وكانتا تتهامسان تحت العربة ولا تكفان عن الضحك وزادت أواصر الألفة بين اولينين ومضيفيه بعد أن عرفا بنبأ الجواد الذي أهداه إلى لوكاشكا. وكان يسر حامل العلم أكثر من ذلك ما يلاحظه من نمو أواصر الألفة بين ماريانكا وأولينين. وقال اولينين ردا على كلام المرأة العجوز:

– ولكنني لا أعرف ماذا أعمل بالضبط؟

ولمحماريانكا بقميصها ومنديلها فتحاشى النظر ناحيتها من خلال الأغصان. فقالت له الزوجة:

– اتبعني، سأعطيك بعضا من ثمر الخوخ.

وعندئذ أراد حامل العلم أن يفسر قول زوجته فقال:

– إنه الكرم القوقازي القديم كما يصوره لها خيالها المظلم في هذه السن، ولعلك ألفت في روسيا الأناناس أكثر من الخوخ

– إني ماض إلى الكرمة المهجورة حيث الأرانب البرية.

ورفع قبعته واختفي بين الكروم وعاد اولينين وقد مالت الشمس نحو الغروب إلى كرمة مضيفيه، وقد سكنت الرياح وتهادت بعدها نسمات عذبة، ولمح اولينين ماريانكا فراح يقترت منها يسبقه كلبه، ورآها تقطع العناقيد، فتورد وجهها، وقد شمرت عن ساعديها وتدلى منديلها، فما إن أبصرته حتى ابتسمت محيية في بشاشة دون أن تتوقف عن العمل.

وعندما اصبح اولينين في مواجهتها، وضع بندقيته على ظهره وأراد أن يتكلم ويقول:

– هل تعلمين وحدك؟ ألا توجد فتيات يساعدنك؟ الله معك!.

ولكنه لم ينطق، ورفع قبعته وهو صامت لأنه كان يحس شعورا مقبضا كلما انفرد بماريانكا، فقالت له ماريانكا:

– أخشى أن تصيب النساء طلقات بندقيتك وهي في وضعها هذا!

– لا تخافي. فلن ينالهن أذى من بندقيتي.

ثم خيم السكون بينهما لحظة، فقطعتهماريانكا قائلة:

– ألا تساعدني؟

فأخرج مديته وأعملها في قطف عناقيد العنب في صمت، وعندما ناولها عنقودا كبير الحجم تلامست منهما اليدان، فأمسك أولينين يدها ونظرت إليه مبتسمة فسألها:

– هل سيتم الزواج قريبا؟

ولكنها تجاهلت سؤاله وزال أثر الابتسامة من عينيها، وأشاحت عنه، فعاد يسألها:

– هل يعمر قلبك بحب لوكاشكا؟

– وماذا يهمك من ذلك؟

– إني أغبطه!

– هذا جائز من جانبك.

– إنني أقول الحقيقة، إن جمالك رائع لا يمكن الصمود أمامه!

وخيل إليه أن كلامه تافه، فاحمر وجهه خجلا، وفقد اتزانه، وأمسك بيديها بين راحتيه. وعندئذ قالت له ماريانكا:

– على أية حال أنت تعلم أني لست لك، فلماذا تحدثني هكذا وتسخر مني؟

ولكنها في عرارة نفسها كانت تعلم تماما أنه جاد في حديثه لا ساخره

–كيف تقولين هذا؟ آه لو عرفت مبلغ.. ماذا أقول.. ليس في الوجود أمر لا أقدم عليه في سبيل رضاك!

– اتركني وشأني. أيها اللحوح!

قالت ذلك بلسانها فقط، لأن وجهها الصبوح وعينيها المتألقتين، وصدرها الناهد، كانت جميعها تنم عن عكس ما تقول. وجال بخاطره أنها تعلم تماما عاطفته نحوها وإن كان عاجزا عن الافصاح ولكنها – شأن كل فتاة – يملؤها زهوا أن يغمرها بحديث الهوى والهيام.

وأخذ يفكر فيما بينه وبين نفسه "كيف لا تعلم وأنا أريد أن أحدثها بكل ما فيها من صفات الروعة والجمال، ولكنها لا تريد أن تجيب".

وبغتة دوى صوت اوستنكا حادا من وراء الكروم وهي تهتف:

– نحن هنا!

ثم ضحكت عاليا وهي تخفي وجهها بين الكروم قائلة:

– إلي يا اولينين، تعال وساعدني فإنني هنا وحدي.

ولكن اولينين لم يحر جوابا ولم يتحرك من مكانه وواصلت ماريانكا قطف العناقيد وخرج هو من الكرمة يسرع الخطى.

* * *

أخذ اولينين ينصت إلى ما يصل إلى سمعه من ضحكات ماريانكا وأوستنكا، التي تصل إليه من بعيد بين حين وحين، وهو في طريقه إلى الغابة. ثم قضى الأمسية في الصيد. بيد أنه عاد من غير أن يظفر بشئ. وجلس عند باب

مسكنه في موضعه المعهود من المدخل ولاحظ أن أصحاب الدار عادوا من الكرمة ودخلوا كوخهم. ولكنهم لم يدعوه للدخول. وخرجت ماريانكا إلى الفناء والحظائر مرتين وخيل إليه أنها كانت تنظر إليه. فجعل يلتهمها بعينيه وهي تغدو وتروح. ولكن الشجاعة لم تواته على الدنو منها. وأخيرا دخلت كوخها ولم تظهر. فسخط على نفسه، وغادر موضعه، ونزل إلى الفناء، وجعل يروح فيه ويجيء وقد أرهف أذنيه لكل صوت يمكن أن يصدر عن الكوخ الآخر.

وهكذا سمع أصوات تناول العشاء، وإخراج الفراش والحوار المتبادل. وسمع رنين ضحكات ماريانكا مرة أو مرتين. ثم أطبق السكون على الكوخ كله وعاد اولينين إلى كوخه فوجد خادمه فانيوشا يغط في نومه بملابسه الكاملة، فغبطه على تلك السعادة التي لا يعرفها إلا ذوو البال الخلي. ولم يطق البقاء في الكوخ فخرج بعد قليل إلى الفناء لأنه كان يتوجس بل يترقب حضور شخص تحت جنح الظلام. بيد أن الوقت انقضى من غير أن يظهر أحد.

وفي صمت الليل كان يميز بسهولة تنفس الأشخاص الثلاثة داخل كوخهم. وكان يعرف تنفس ماريانكا فيتجاوب معه قلبه بالنبض السريع. ولم يلبث القمر أن ظهر متأخرا. فازداد قلق اولينين وسخطه وسأل نفسه:

– ترى ماذا أريد بالضبط؟

وعندئذ سمع ضجة خافتة كوقع الأقدام الحافية. فأرهف أذنيه ثم اكتشف أن الجاموسة كانت تتقلب في الحظيرة ثم وقفت على قوائمها برهة وجيزة وبعدئذ عادت للرقاد. فجعل اولينين يتساءل ماذا ينبغي أن يفعل الآن؟ إن النوم يجفوه. ويفتنه جمال الليل في هذه الأمسية القمراء.

وبعد قليل تبين خطوات ماريانكا داخل الكوخ. فأسرع إلى نافذتها وأخذ ينقر على مصراعها نقرا خفيفا وجرى نحو الباب. ونقر عليه وانتظر. وسمع صوت قدميها الحافيتين تتجهان إلى الباب. وبعد ذلك تحرك المزلاج وأحدث صوتا. ثم ظهرت ماريانكا في فرجة الباب كأنها رؤيا حلم في ضوء القمر. فانكمش حتى لا تراه. وأسرعت تغلق الباب. فعاد إلى النقر، ولكنها في هذه المرة لم تستجب له. فرجع إلى نافذتها وأخذ ينقر مرة أخرى. ثم سكت وأنصت. فروعه صوت رجل ينبعث عاليا غاضبا، فالتفت ليرى شابا قوقازيا ربع القامة يخترق الفناء ويقول:

– لقد رأيت كل شئ والله العظيم هذا شئ مدهش!

وعرف اولينين أنه الجندي نازركا. فارتبك ولم يدر ماذا يقول أو يفعل، واستطرد ذلك الشاب الخبيث يقول:

– سأخبر القيادة بما رأيت! وسأخبر أباها أيضا ليعرف حقيقة ابنته ذات الشرف المصون والذيل الطاهر! أليس يكفيها رجل واحد؟

وأخيرا وجد اولينين لسانه فسأله بحدة:

– ماذا تقصد بهذه الضجة؟

– لا شئ! أقصد فقط أن أبلغ ما رأيت إلى من يهمهم الأمر! إنك حقا فتى خطير يا طالب الحربية!

وكان نازركا يتحدث بصوت مرتفع جدا شأن من يريد إحداث فضيحة.

– اسمع. هيا معي إلى كوخي لنتفاهم. ليس بيني وبينها شئ والفتاة طاهرة

شريفة لم تسمح لي بالدخول عندها. ولم أقصد بها سواء!

– حقا؟ أتظنني صدقت؟ أتظن أنك ستجد من يصدقك؟

– ولهذا السبب أعطيتك هذه لتسكت!

ونفحه بعشرة روبلات. فضحك نازركا وقال:

– افعل ما تشاء. هي حلال لك!

وكان نازركا قد جاء القرية تلك الليلة تنفيذا لطلب لوكاشكا كي يبحث عن مكان يخفي فيه جوادا مسروقا. وفي طريقه سمع وقع أقدام في فناء الكوخ. وكان ما كان بينه وبين اولينين. ولكنه حرص على إبلاغ لوكاشكا في الصباح بكل ما حدث، وأراه العشرة روبلات.

وفي اليوم التالي عندما قابل اولينين أصحاب الدار نظرت إليه ماريانكا وضحكت قليلا. فقضى ذلك اليوم مضطربا، ولم يجد سبيلا إلى النوم كذلك. فتعمد أن يقضي اليوم الذي يليه في الصيد، ثم ذهب لزيارة بيليتسكي هروبا من التفكير، وآلى على نفسه ألا يذهب إلى كوخ حامل العلم مرة أخرى.

وفي الليل استطاع أن ينام. ولكن العريف حضر وأيقظه لأن الأمر صدر إلى الكتيبة بالخروج فورا في غزوة. فتمنى اولينين أن يلقي حتفه في تلك الغزوة حتى لا يعود إلى القرية.

واستمرت الغزوة أربعة أيام. وكان القائد من أقرباء اولينين فعرض عليه أن يبقيه في مكتبه ياورا له ويقيم في مقر القيادة. ولكن اولينين رفض ذلك العرض، لأن هذه الأيام الأربعة أثبتت له أنه لا يستطيع البقاء بعيدا عن القرية. ورجا

القائد أن يسمح له بالعودة فورا. فأجابه إلى طلبه ومنحه وسام الصليب.

وكان من قبل يحلم بذلك الوسام ويتمناه. ولكنه حين ظفر به تبين أنه لا يكترث به. بل وتبين أيضا أنه لا يكترث بما سيتحقق بعد قليل من ترقيته إلى رتبة الضابط.

وامتطى اولينين صهوة جواده وعاد وفي صحبته فانيوشا سليما معافي، متقدما على سائر جنود الكتيبة بضع ساعات، وقضى الأمسية كلها جالسا في مدخل كوخه يرقب ماريانكا. ثم جعل يذرع الفناء طول الليل على غير هدى، وبغير هدف، وقد خلت رأسه من كل فكرة.

الفصل الخامس عشر

غادر اولينين فراشه في ساعة متأخرة من صباح اليوم التالي، وكان حامل العلم قد خرج، فلم يتوجه اولينين للصيد كما كان قد عقد العزم إذ كان في حالة من الاضطراب بادية لا يستقر في موضع ولا يستقيم له مسلك، حتى خيل الوهم لفانيوشا أن طائفا من المرض عرض له وعندما حان المساء شرع اولينين يكتب. وظل مثابرا على الكتابة إلى ساعة متأخرة من الليل. ولكن الخطاب الذي كتبه لم يعرف طريقه إلى البريد، لأنه أدرك أن كتابته لا يمكن أن تفهم على وجهها الذي عناه. وفي واقع الأمر لم يكن يهمه كثيرا أن يفهم أحد سواه ما أراد التعبير عنه.

وها هو ذا ما سطره في تلك الليلة:

"ترد علي الخطابات من روسيا حافلة بالرثاء لحالي. كأن القوم يخشون أن تطمرني الأرض، فأدفن حيا في هذا الركن الموحش من الدنيا. ويجمع الكل على أنني صائر لا محالة إلى الفظاظة والخشونة وحياة البداوة المتخلفة عن روح العصر، وبعضهم يتوقع أن انزلق إلى إدمان الشراب، ولا يستبعدون أن اقترن بحسناء من بنات القوقاز. ودليلهم على هذا ما أكده قائد من أكبر قوادنا.

" كل روسي يخدم في القوقاز عشر سنوات لابد أن يخرج من هناك بآفة ملازمة، فإما أن يدمن الخمر حتى تأتي عليه. واما أن يتزوج قوقازية منحلة! وهو كلام خطير جدير أن يفزع ذا رشد! ولست أريد لنفسي الشقاء والخسارة، وأنا

أملك أن أعيش في سعادة وبحبوحة، فأتزوج الكوتنس ب.. أو أعين ياورا في القصر أو مقدما للنبلاء في ناحيتي!

"هذا قولهم وهو يدل على جهل تام بالكنه الحقيقي للحياة والسعادة، وما أجدرهم أن يغيروا هذا الرأي متى ذاقوا ولو مرة واحدة في العمر، جمال الحياة الطبيعية في سواء فطرتها الأولى!

" أجل لا يمكن أن يعتبر إنسانا حقا من لم تهتز نفسه بهذا الذي أراه في كل يوم من جبال يتوجها الجليد، أو امرأة يتوجها الجلال الطبيعي والجمال الفطري، فهكذا خلق الله ولا شك المرأة الأولى التي أفسدنا صورتها بما نزعمه من مدنية زيفاء!

"لو رأوا هذا الذي رأيت، وجاشت نفوسهم ببعض ما أحسست لعلموا يومئذ أينا أصدق قيلا، وأهدى سبيلا، وأحظى بما نال! أينا يعيش حقا وصدقا، وأينا حياته بهتان وتمويه!

" كم أحتقر نفسي لو أنني استبدلت الذي هو أدنى بالذي هو خير. لو أنني استبدلت الأبهاء الرحيبة الباردة، والدمي المزركشة ذات الشعر المضمخ، والطرر المستعارة والوجوه المصبوغة بكوخي الصغير وغابتي وحبي!

"إن حياة المجتمع تبدو في نظري آسنة، بما فيها من ثرثرة ومراسم ومظاهر ومجاملات ورياء. وليت الذين يلومونني يهتدون إلى لباب الحقيقة ليعلموا أن الطبيعة هي مصدر الحق والجمال الذي لا مصدر سواه. عندئذ تتبدل أنظارهم وتنهار قصور آمالهم وأهدافهم في الحياة.

"إن السعادة الحقيقية في أن يعيش الإنسان مندمجا مع الطبيعة بجميع

حواسه. هذا هو رأيي وهذا هو ما اصنعه الآن فعلا. ولكني أخالهم يرثون لحالي ويقولون" مسكين! إن هذا النمط من الحياة قد يسوقه (لا قدر الله) إلى الزواج من فتاة قوقازية من تلك الطبقة العامة، فتهدم مستقبله الاجتماعي وتقضي على مكانته!".

"وليس لي أمنية سوى أن يقضي على مكانتي بهذا المعنى. نعم ليس أحب إلي من الزواج من فتاة قوقازية من بنات السوقة. وليس يمنعني من ذلك إلا تهيبي من الإقدام على حالة من السعادة لا أقوى على احتمالها.

"ثلاثة أشهر انقضت منذ رأيت القوقازية الحسناء ماريانكا. وكنت حديث عهد بفتنة العالم الزائف الذي تركته. فلم يكن ليخطر ببالي أني قد أحب هذه الفتاة. وكان قصاراي أن أسر بحسنها الفائق، سروري بجمال الجبال وجمال السماء. وشيئا فشيئا تبين لي أن اجتلاء جمالها ضرورة من ضرورات حياتي.

"وبدأت أسأل نفسي: هل أحبها حقا؟ وفتشت في أعماق نفسي، فلم أجد شيئا يشبه عاطفة الحب كما كنت أتخيلها. فلم يكن حبا شهوانيا كالذي خبرته من قبل، ولا وحشة ناجمة من العزلة والوحدة. وإنما هو الشعور بالحاجة إلى رؤيتها، وسماع صوتها والإحساس بقربها مني، فلما ضمني وإياها مجلس ذات ليلة، وأتيح لي أن ألمسها، شعرت أن الذي بينها وبيني عروة وثقى لا انفصام لها، ولا حيلة لي فيه ولا قبل لي بدفعه. ومع ذلك عزمت على المقاومة وقلت لنفسي:

"أيكفي أن تكون امرأة جميلة كي أتزوجها؟ أأعشق تمثالا؟ ليس بين حياتينا شئ مشترك حتى أحبها وهي لا تدري عن عالمي شيئا".

"ومع ذلك أحببتها. وتغيرت العلاقة بيننا بعد تلك الجلة الأولى. فلم تعد صنما مهيبا معبودا بيني وبينه عازل، بل صارت إنسانا سويا من لحم ودم. فأصبح كل همي أن أتحدث إليها وألقاها. وفي سبيل ذلك عسلت بيدي في حقل أبيها. وقضيت أمسيات برمتها بين أسرتها. وأمست صورتها في هذا الإطار العائلي الجديد، مصونة على الدوام، محفوفة بهالة من التقديس والجلال، على ما في شخصها من بشاشة وأنس ومرح ومودة.

"وكنت في تلك المناسبات أحاول أن أبدو منبسطا في غير اكتراث أو غرض وأنا أمازحها، ولكن قلبي كان يتنزى وتمزقه الأشواق، فتحس بفطرتها السليمة أني أتكلف وأعاني.

"وانتهزت فرصة في الكرمة وصارحتها بهواي والخجل يشملني. فما كان ينبغي أن أكاشفها بتلك الكلمات، لأنها في نظري أجل من كل علاقة، وعاطفتي نحوها أسمى من كل تعبير. وحز في نفسي أنني أسففت فلم ارتفع إلى المستوى الذي يليق بها، ولم أبلغ معها مستوى العلاقات المستقيمة الصريحة الفطرية البسيطة.

"وبلغ مني الاضطراب مداه فانعكس ذلك على أحلامي. فكنت أراها في المنام خليلتي تارة وحليلتي تارة أخرى. فكنت أصحو وبي غثيان شديد من مجرد هذه الصورة، لأنه من الفحش أن أتخيلها امرأة عاهرة. ومن السفه أن أتخيلها زوجة لنبيل روسي، لا لأن ذلك فوق قدرها، بل لأنه يمسخها مسخا ويحيل طبيعتها النقية السليمة.

"وحاولت أن أهرب من هذا المأزق، مأزق القلق والحيرة. فانغمست في

حياة من العربدة والسكر على طريقة سكان الإقليم. ولكن هذا الدواء زاد من غثياني وتقززي من نفسي. وبدت مشكلتي أشد تعقدا في نظري وأدعى لليأس.

"إن شر ما في الأمر إحساسي بأني أفهمها وأنها لن تفهمني. لا لأنها أقل مني، بل لأنها أفضل مني. بحيث يكون من الطبيعي ألا تفهمني فهي كائن متكامل كالطبيعة نفسها تجري على سجيتها بغير نقص وبغير حاجة إلى أحد. أما أنا فمخلوق ناقص ضعيف، بي حاجة إلى أن تدرك نقصي وتفهم عذابي.

"وفي الثامن عشر من هذا الشهر خرجت كتيبتي في حملة، فأمضيت ثلاثة أيام بعيدا عن القرية، كنت فيها مبتئسا حزينا، سأمان، لا يسري عني العزف واللهو، ولا يحلو لي السمر ولعب الورق. كنت كمن فقد نفسه!

"وأمس عدت إلى القرية. ورأيتها. وإذا بي من جديد في كوخي، أرى من نافذتي قمم الجبال تكللها الثلوج، وأحسست أني أعيش مرة أخرى.

"وبهذا تأكد عندي أني أحب لأول مرة في حياتي حبا صادقا. وأني لفخور بهذا الحب. وإن لم يكن لي فيه فضل لأنه شعور غلبني على أمري. ولكن حاولت التخلص منه بضروب من التصوف وإنكار الذات. بل حاولت أن أخدع نفسي، برعاية ذلك الحب الطبيعي الساذج بين لوكاشكا وماريانكا. فلم أجن من ذلك إلا أشواك الغيرة.

"إن حبي لها لغريب.. ولعلني أحب الطبيعة فيها. أو أحب كل جميل في الطبيعة ممثلا فيها. ولكني لا أفعل ذلك بارادتي أو عن رضى مني، بل مغلوبا على امري. فقوة أكبر مني هي التي فرضت عليّ هذا الحب وسخرتني له، فأنا فيه أداة لا إرادة لها.

"أما التضحية بالنفس وفعل الخير للناس فشئ جميل. ولكن نفسي الآن مشغولة بشئ واحد هو حب ماريانكا. فليس فيها متسع لأي مبدأ آخر. ولذا لم أعد أنشد السعادة للوكاشكا أو غيره من الناس. إني أغار من كل إنسان. وأتعذب. ولكن هذا العذاب، وعن طريق هذا العذاب أشعر بحياتي.

"لقد كنت ميتا من قبل. أما الآن فأنا أحيا بمعنى الكلمة. ولأذهبن اليوم إلى دارها ولأفضين لها بكل شئ".

* * *

وتوجه اولينين إلى كوخ حامل العلم في ساعة متأخرة من ذلك المساء، فوجد اولنكا جالسة على أريكة عند المدفأة تقوم ببعض الأعمال المنزلية. أما ماريانكا فكانت تحيك شيئا من الثياب على ضوء شمعة وهي مكشوفة الشعر. فما إن أبصرت اولينين داخلا حتى أسرعت إلى منديلها وقفزت فوق رف المدفأة فكان لا يرى إلا ركبتها. فلما رأى اولينين ذلك، استوحش واضطرب، لأنه كان يشعر بعينيها الجميلتين ترقبانه من حيث لا يراها. وجرى الحديث العادي بين الضيف والأب والأم.

وأظهرت أولنكا الكثير من الكرم والعطف عليه، وألحت عليه مرارا أن يأكل من الزبيب والشهد. وبعد قليل تطرق الحديث إلى موضوع خطير.

– إن محصول العنب هذا العام جد وفير. عصرنا منه كفايتنا من الجكير وصنعنا كفايتنا من المربى. وما بقي سنبيعه بثمن طيب، ونقيم حفلة زفاف رائعة!

فأحس اولينين أن الدم يصعد إلى رأسه. وتسارعت دقات قلبه وسأل:

– ومتى سيكون الزفاف؟

وكأنما أرادت ماريانكا أن تجيبه بطريقتها فسمع من فوق المدفأة طقطقة لب عباد الشمس. أما العجوز فقالت بكل هدوء:

– المفروض أن يكون ذلك في الأسبوع القادم. فنحن على أهبة الاستعداد. وقد عزمنا بعون الله على أن يكون تجهيز ماريانكا بالغا حد الكمال. وليس هناك ما يقلقنا سوى ما طرأ على سلوك عزيزنا لوكاشكا في الفترة الأخيرة من أعوجاج. فقد نقل إلينا أحد زملائه في الكتيبة أنه يتردد على منازل عشيرة النوغاي.

فقال اولينين:

– هذه مجازفة غير مأمونة العواقب.

– أليس كذلك؟ لذا قلت لعزيزنا لوكاشكا "لا تتورط في أعمال الرعونة طلبا للشهرة. وتمهل، فإن الشهرة والبطولة ستأتي في مناسباتها مع الأناة وطول العمر. وأنت الآن مقدم على الزواج والاستقرار فينبغي أن تكون حريصا على نفسك".

– إني فعلا سمعت أنه سرق من هناك جوادا في المدة الأخيرة وباعه بثمن طيب.

فنظرت إليه من فوق المدفأة عينان جميلتان نقيضان عداء وقالت صاحبتهما:

– إنه فتى شجاع ولا تثريب عليه! ما دام لا يؤذي أحدا بل يروح عن نفسه.

وقفزت من فوق رف المدفأة وخرجت وصفقت الباب، فلبث اولينين كالمصعوق لا يدري شيئا مما تحدثه به اولنكا، إلى أن وفد على الدار ضيوف، هم أخ مسن للسيدة اولنكا، والعم بيروشكا، وأوستنكا. ومعها ماريانكا.

وبدأت اوستنكا بسؤاله:

– أما زلت في أجازة؟

فأجابها بالإيجاب، وشعر بشئ من الخجل فنهض منصرفا. ولكن بيروشكا قال:

– إن هذا لا يليق.

فاضطر للجلوس وشرب الانخاب مع العم بيروشكا، ثم مع شقيق اولنكا ثم مع بيروشكا مرة أخرى. وهكذا. وكلما أقبل على الشراب ازدادت آفاق نفسه تجهما، وازداد الشيخان طربا وسرورا.

وتسلقت الفتاتان رف المدفأة، فكان تهامسهما يصل إلى أرض القاعة غامضا كخرير الماء. وعقل اولينين لسانه فلم يتكلم. وعكف على الشراب يريد أن يغرق فيه همه.

وفي نحو الساعة العاشرة ضاقت اولنكا بصخب الشيخين المعربدين فصرفت الجميع. ودعا الشيخان نفسيهما لإتمام السكر والعربدة في مسكن اولينين. وتوجهت اوستنكا إلى بيتها. وعهد اولينين بالشيخين القوقازيين إلى فانيوشا ليقدم لهما ما يطلبان من طعام وشراب.

ولمح اولينين السيدة اولنكا تخرج إلى الحظيرة لتنظفها، فبقيت ماريانكا

وحدها في الكوخ. وعندئذ فارقه خموله وثبوط الهمة، فأسرع إلى الكوخ حيث وجد ماريانكا تستعد للنوم. فاتجه إليها وهم أن يتكلم، ولكن الكلمات جفت في حلقه، وتراجعت هي منه مذعورة، فجلست فوق فراشها في ركن من الحجرة وحملقت فيه وجلة.

وكانت نظرة الخوف هذه كافية لإثارة الأسى والخزي في نفسه. ولكنه شعر إلى جوار ذلك الخزي بخيلاء، لأنه كبر في وهم الفتاة بحيث تتهيبه وتخشاه على نفسها. وفك ذلك الزهو عقدة لسانه فقال لها:

– ماريانكا. ألا ترحميني؟ ألا ترين عجزي عن الإفصاح عما يعتلج في صدري من لواعج هواك؟

فأجفلت مبتعدة وقالت:

– لقد ذهبت الخمر برشدك! ليس لك إليّ من سبيل!

– أنت واهمة يا ماريانكا. فليس تأثير الخمر هو الذي أنطق لساني بهذا القول. ماريانكا! لا تتزوجي لوكاشكا! سأتزوجك أنا..

وثبتت فيه عينيها بنظرة جد لا أثر للخوف فيها ولم تجب.

– ماريانكا! لقد اضطرب تفكيري وكاد يمسني الخبال من فرط حبك. لم أعد أملك زمام نفسي! أخرجت أمري واقتداري من يدي فليكن ما ترومين!

وبسط نحوها ذراعيه كالمتوسل. فقاطعته الفتاة وقد قبضت على ذراعه قائلة:

– ما هذا الهراء! أتهذي؟

ولم تدفع ذراعه عنها. بل تقلصت أصابعها القوية المخشوشنة على عضلاته:

– ومنذ متى كان السادة النبلاء يتزوجون بنات السوقة من القوقازيات؟

– لست أبالي.. تزوجيني!

فضحكت وقالت:

– ولوكاشكا ماذا نصنع به؟

فجذب ذراعه من قبضتها، واحتوى جسدها البض الفتى بكل قوته بين أحضانه. ولكن ماريانكا انفلتت من ذراعيه وفرت حافية القدمين إلى مدخل الكوخ ناحية من النار.

وأفاق اولينين فهاله ما أقدم عليه. وأحس أنه انزلق مرة أخرى في سلوكه معها إلى الحضيض من الخساسة. ولكنه لم يشعر بشئ من الندم على أية كلمة مما قاله لها. وعاد إلى كوخه. فلم يكترث بالشيخين العاكفين على الشراب والقصف ودخل مخدعه، واستلقى على فراشه وسرعان ما راح في سباق عميق.

الفصل السادس عشر

وافق اليوم التالي عيدا للقوقازيين، فازدحمت شوارع القرية في المساء، بالناس مرتدين الملابس الزاهية. وتجمع الناس في الميدان الكبير على كثب من حانوتين يبيع أحدهما الحلوى ويبيع الآخر المناديل والمنسوجات المزركشة. وكنت ترى الشيوخ وهم جلوس على مصاطب دار الأمن بستراتهم الرمادية المهيبة لا يزينها وشي من ذهب أو خلافه، أما حديثهم فكان عن المحصول والشباب والأيام الخوالي وكان غالبا ما يتسم بالاتزان، وكانوا يتطلعون في إعجاب إلى الشباب، وإذا مرت النساء أمامهم وقفن وأحنين الرؤوس. أما الفتيان فكانوا يرفعون قبعاتهم تحية واحتراما، وبعض هؤلاء الشيوخ كان يرمق المارة في شراسة وجمود، والبعض الآخر في رقة وعطف وراحت الفتيات يتحدثن ويتضاحكن بأصواتهن الصافية الرقراقة قبل أن يبدأن رقصتهن المشهورة التي يغنين وهن يقمن بها، وقد تزينت كل منهن بصدار زاه وعصبت رأسها بمنديل يزيدها فتنة. أما صغار الصبية فكانوا يتصايحون ويلهون باللعب. وعكفت البنات الناضجات على الرقص والغناء. أما الفتيان الذين لم يلتحقوا بالخدمة العاملة بعد والذين عادوا لمشاركة أهليهم في الابتهاج بالعيد فكانوا يسيرون متشابكي الأيدي وكان منظرهم رائعا بستراتهم الجركسية البيضاء والحمراء الموشاة بالذهب. وكانوا يمزحون مع كل جماعة من النساء أو الفتيات يقابلونها ويغازلونها.

ووقف صاحب حانوت المناديل أمام باب حانوته – وكان أرمنيا – في

سترة أنيقة ملفتة للأنظار يترقب الزبائن، حين أقبل رجلان ملتحيان من الحجن قادمين من وراء نهر ترك للتفرج على ما يجري في العيد، وقد جلسا أمام منزل صديق لهما يدخنان غليونيهما ويرمقان المارة ثم يتبادلان الحديث في لهجة سريعة.

وكانت أصداء الأغاني تتجاوب في شوارع القرية، التي هجر جميع أهلها في ذلك اليوم منازلهم، حتى العجائز منهم، بعد أن نظفوها في اليوم السابق. وكانت السماء صافية الزرقة والهواء حارا وقد صبغ وهج الشمس قمم الجبال بلون وردي أخاذ. وبالجملة كانت القرية مجموعة من حشد زاخر مرح صاخب في ذلك اليوم.

وكان اولينين يأمل أن يرى ماريانكا في ذلك الصباح فأخذ يذرع الفناء غدوا ورواحا، ولم يدر بخلده أنها ارتدت ثوبا فاخرا وقصدت الكنيسة. واشتركت مع الفتيات في قزقزة اللب، بيد أنها كانت تقصد الدار بين الفينة والفينة، ترمق فيها الساكن بنظرة كلها عطف وإشراق. وخشي اولينين أن يحدثها وهي بصحبة زميلاتها، مع أنه كان يتلهف للإفضاء إليها ببقية الحديث الذي حدثها به ليلة الأمس، وكان أمله أن يحصل منها على رأي قاطع إذ لم يعد في مقدوره أن يتلظى بذلك القلق وبينما هو في تفكيره هذا إذ انطلق في أثرها، ومر بناصية شارع كانت جالسة عندها، ولكنه سمع الفتيات يتضاحكن من ورائه ولمح بيليتسكي، من منزله الذي يطل على الميدان، اولينين أثناء مروره فدعاه، وتبادلا بعض الحديث ثم جلسا إلى النافذة، وبعد برهة وافاها بيروشكا وجلس على الأرض، وقال بيليتسكي مبتسما وهو يشير إلى جمع يزخر بالألوان الزاهية في ناصية الشارع:

– هاك الحسناء المعبودة، هناك، وحبيبتي أيضا، أتراها؟ إنها ذات الرداء الأحمر القاني!

ثم صاح بالفتيات من النافذة:

– لماذا لا تشرعن في رقصتكن المشهورة؟

ثم اردف:

– ينبغي أن نعد لهن حفلة رقص بمنزل اوستنكا عندما

يسدل الظلام ستاره.

فقال اولينين في لهجة اليقين:

– لن تفوتني هذه الحفلة، وسأذهب إلى منزل اوستنكا، ولكن ترى هل ستحضر ماريانكا؟

فقال بيليتسكي دون أن تأخذه الدهشة:

– طبعا ستكون هناك!

ثم أشار إلى الجمع المختلط وقال:

– حقا إنه لمنظر خلاب!

فأمن اولينين على كلامه ثم قال:

– يهتم هؤلاء الناس بأعيادهم ويحرصون على أن ينعموا فيها بالمرح والسرور، ويظهر ذلك جليا في عيونهم ووجوههم وحركاتهم وثيابهم، بل الشمس والهواء والطبيعة تزهو جميعها احتفاء بالعيد.. أما نحن في روسيا فلا نأبه بذلك!

ولم يعلق بيليتسكي على كلام اولينين بل وجه الحديث إلى بيروشكا:

– لم لا تشرب يا صديقي؟!

وغمز بيروشكا اولينين من طرف خفي مشيرا إلى بيليتسكي قائلا:

– صديقك مزهو بنفسه.

ثم رفع بيليتسكي كأسه وشرب نخب الجميع فرد عليه بيروشكا:

– في صحتك.

ثم واصل حديثه ملتفتا إلى اولينين:

– هل تظن هذه احتفالات بالأعياد، رحم الله الاحتفالات في الأيام الخوالي حيث كانت النساء يخرجن في ثياب موشاة بالذهب، ويصففن أعناقهن بصفوف من النقود الذهبية، ويغطين رؤوسهن بأوشحة من قماش مذهب، كانت تهفهف بصوت يشرح النفس ويملؤها سرورا عندما كن يسرن. كانت كل واحدة تبدو وكأنها أميرة متوجة، وكن ينطلقن زرافات صادحات بالأغاني، ويمضين في اللهو طول الليل، وأحيانا كانت الاحتفالات تستمر ثلاثة أيام، وكان الرجال يدحرجون برميلا يواصلون منه الشراب، ولا أزال أذكر أبي حين كان يعود وقد صبغ الأحمرار وجهه وجسمه وفقد قبعته، فإذا بلغ الدار ارتمى على فراشه، فكانت أمي تحضر له البطارخ الممتاز وتسعفه ببعض الجكير ليفيق، ثم تهرع إلى الخارج باحثة عن قبعته. هذه كانت الحال في الأيام الخوالي.

وبعد أن انتهى بيروشكا من إلقاء هذه المحاضرات سأله بيليتسكي:

– وهل كانت الفتيات في تلك الأيام يمرحن وحدهن؟

– إنك لا تتصور! كان إذا اقتحم الفتيان حلبة الرقص، تهم الفتيات إليهم بالهراوات يضربنهم ويضربن جيادهم، ورغم ذلك كان الفتى ينجح في اختراق

الحلبة، ويأخذ الفتاة التي يحبها ثم يهرب بها ولا حرج عليه فقد شغفته حبا.

وفي تلك اللحظة أقبل لوكاشكا ونازركا، كل يمتطى صهوة جواد نحو الميدان. وكان لوكاشكا – فوق جواده الكاباردي – يخطو بخفة متبخترا برأسه البديع ومعرفته الملساء، وكان واضحا أن لوكاشكا لم يأت من مكان آمن أو قريب، تنبئ عن ذلك بندقيته وغدارته، وكانت عيناه تتألقان ببريق الزهو والفخار، كأنما كانتا تتكلمان بلغتهما وتقولان:

– هل لمثل هذا الفتى نظير؟

وكان هو وجواده يسترعيان الانتباه ويلفتان النظر في الجموع المحتشدة، وإذ صار لوكاشكا أمام جمع من الشيوخ، توقف ورفع قبعته البيضاء، وعندئذ ابتدرهما أحد الشيوخ بالسؤال وهو عابس:

– كم سرقتما من جياد النوغاي؟

فقال له لوكاشكا دون أن يلتفت إليه:

– هل أحصيتها أيها الشيخ حتى تسأل؟

فازداد عبوس الشيخ، وأردف قائلا:

– ما كان الأمر ليقتضي أن تصطحب هذا الفتى معك!

فغمغم لوكاشكا:

– انصتوا إلى ذلك الشيطان المتعجرف، إنه يعلم كل شئ.

وتملكه بعض القلق ولكنه لمح بعض الفتيات فيمم شطرهن، وعندما بلغهن حياهن ضاحكا.

فأجبنه بأصواتهن المرحة:

– طبت مساء يا لوكاشكا.. أيها الفتى المرح. هل جيوبك عامرة بالمال؟ اشتر بعض الحلوى للفتيات. هل ستطيل المكث بيننا، فقد انقضى زمن لم نرك فيه؟

فأجاب لوكاشكا:

– حضرت أنا ونازركا لنحتفل بالعيد.

وعندئذ قالت اوستنكا وهي تغمز ماريانكا منطلقة في الضحك:

– ما بالك يا ماريانكا!؟

ولكن ماريانكا لاذت بالصمت، وجعلت ترمق الفتى بعينيها المتألقتين، ثم قالت في لهجة جافة:

– حقا لم نرك منذ زمن بعيد، ما بالك تدوس أقدامنا بجوادك؟

ثم أشاحت عنه. وكان لوكاشكا بادي المرح، ولكنه ما لبث أن انقبض صدره وقد أخذ برد ماريانكا الجاف. ثم عاد وهتف:

– اركبي فألوذ بك إلى الجبال يا فتاتي.

وسار نحو ماريانكا وانحنى أمامها وهمس في أذنها:

– هل من قبلة تروي قلبي المتعطش؟

وتلاقت عيونهما فاحمر وجهها وتراجعت، ثم قالت:

– ما هذا؟ ستسحق قدمي!

قالت ذلك وهي تنظر إلى قدميها البديعتين في جوربهما الرائع المطرز

وخفها المحلى بشريط فضي.

وحانت من لوكاشكا نظرة نحو اوستنكا، بينما جلست ماريانكا بجوار امرأة معها طفل أخذ يعبث بعقد ماريانكا، فأخرج لوكاشكا كيسا من الحلوى واللب ناوله لاوستنكا وقال وهو يبتسم لماريانكا:

– هذه الحلوى لكن جميعا.

وظهرت الحيرة والارتباك على وجه ماريانكا مرة أخرى، وعندئذ قالت لها أم الرضيع:

– أولى بك أن ترحبي بالفتى.

ولم ينتظر لوكاشكا، بل ضرب جواده بسوطه وقاله وهو يبتعد:

– سأضع جوادي في الحظيرة ثم أعود أنا ونازركا لنحتفل بالعيد طول الليل.

وإذ وصل منزله استقبلته أخته ستبكا، فطلب منها أن تأخذ الجواد إلى الحظيرة وتطعمه دون أن تنزع سرجه. وراحت البكماء تتكلم بإشاراتها المعهودة مظهرة إعجابها بالجواد حتى أنها طبعت قبلة على أنفه وأخذ لوكاشكا يرقي درجات السلم، وهو يثبت بندقيته وصاح مخاطبا أمه:

– كيف أنت يا أماه؟ لماذا لم تخرجي للآن؟

وذعرت أمه للمفاجأة. فلم يدر بخلدها أنه سيأتي، حيث أشاع كبركا أنه لن يحضر.

– إلينا ببعض الجكير يا أماه! إن نازركا في طريقه إلينا لنحتفل بالعيد.

فأجابت العجوز:

– سآتيك به في التو واللحظة يا بني، إن الجميع يمرحون وكنت أحسب أن ابنتنا قد خرجت.

وبعد فترة وصل نازركا.

* * *

تناول لوكاشكا الكأس من يد أمه، وأفرغها في جوفه دفعة واحدة وهو يهتف:

– نخبك يا أماه!

وأقلق نازركا الحديث الذي فاه به الشيخ بشأن الجياد المسروقة فقال:

– كم أتوجس مما قاله العجوز بورلاك، يخيل إلي أنه يعلم الأمر!

ولكن لوكاشكا تظاهر بعدم المبالاة وقال:

– إنها تخاريف العجائز، ما له وشأننا، لابد أن الجياد قد عبرت النهر ومهمتك البحث عنها.

– إن كلام العجوز نذير شؤم.

– ما هذه الأفكار السوداء؟ إن كأسا من الجكير لهذا الشيخ تسوي كل شئ، علينا بالمرح، اشرب لنلحق بالفتيات، شيئا من الشهد يا أختاه.

وعزم لوكاشكا أن يبقيا في القرية حتى يصيبا من المرح قدر المستطاع، وطلب من صديقه أن يوافيه ببعض الفودكا ونقده ثمنها.فأسرع نازركا إلى منزل يانكا لشراء الفودكا. وعرج بيروشكا وبيرجوشوف على بيت لوكاشكا، فطلب

من أمه مزيدا من الشراب، وعندما استقر المقام ببيروشكا قال فجأة:

– ما أبرعك في سرقة الجياد أيها اللعين! كم أنا معجب بك!

– معجب ولا شك، ولذلك أنت رسول المحبين في حمل حلواهم إلى العذارى..

– محض افتراء، لقد أراد ذلك الشاب أن يغرر بي، وأغراني ببندقية، وكان في مقدوري أن ألبي رغبته لولا حبي لك.. أين كنت يا فتى؟

وتبادلا الحديث فكان لوكاشكا يجيب باقتضاب، وتدخل بيرجوشوف في الحديث مؤمنا على ما يقوله لوكاشكا فيما يختص بالجياد، وعاد لوكاشكا يقول:

– كان يصحبني كرايخان الذي يذكر أنه يعرف جميع المسالك والطرق، ولكن لشدة الظلام ضل صديقي الطريق، وأسقط في أيدينا ثم سمعنا نباح كلام، وبسرعة استولينا على الجياد، على أن نازركا كاد يقع بين أيدي بعض النسوة من النوغاي.

وفي هذه اللحظة عاد نازركا بالفودكا واستمر لوكاشكا في حديثه عن المغامرة:

– وعند عودتنا ضل كرايخان الطريق ثانية وكاد يوردنا مورد الهلاك..

فقاطعه بيروشكا قائلا:

– ولم لم تهتدوا بالنجوم والكواكب؟

وهنا هتف بيرجوشوف:

– لقد أشرت أنا إلى هذا الرأي!

فعاد لوكاشكا يتم القصة قائلا:

- الكواكب! والليل تلفه ظلمة حالكة! لقد أعملت فكري وقدحت ذهني لنسلك الطريق الصحيح حتى أنني امتطيت فرسا آخر وتركت جوادي عله يهدينا إلى الطريق، وفعلا - لتوفيقنا - سار الجواد نحو قريتنا رأسا، وكانت تباشير الفجر قد بدأت تنتشر في الأفق فخفنا أن يفتضح الأمر، وحضر أحد الفتيان وساق الجياد مجتازا النهر.

وهز بيرجوشوف رأسه مؤمنا على ما قاله لوكاشا، ووصفه بالبراعة ثم قال:

- طبعا حصلت على مبلغ طائل ثمنا لها؟

فأجاب لوكاشكا:

- الثمن هنا في جيبي.

ولكنه أمسك عن الكلام، إذ رأى أمه تدخل عليهم فصاح:

- علينا بالشرب أيها الرفاق.

وأراد بيروشكا أن يسرد قصة من أقاصيص أيامه الخوالي ولكن لوكاشكا قاطعه:

- أقاصيصك لا تنتهي أيها العجوز..

ثم شرب كأسه وخرج.

الفصل السابع عشر

في الليل انطلق لوكاشكا إلى الشارع، وكان البدر الفضي يزين قبة السماء فانعكست أشعته على الأشجار في منظر يأخذ الألباب، والدخان يهرب من المداخن، وتنبعث الأضواء من نوافذ الدور، وانتشرت في الجو رائحة الريف، وتعالت الصيحات والأغاني فكانت أكثر جلاء في سكون الليل، وتناثرت المناديل والقبعات كأنها النجوم السائرة والجمع المختلط من الشبان والفتيات يموج بالحركة في الميدان الفسيح يرددون الأغاني، وقد أخذتهم نشوه المرح فراحت الفتيات يرقصن في حين تضبط إحداهن المحن، لحن أغنية عاطفية.أما العجائز من النساء فاكتفين بالانصات إلى الأغاني، والأطفال يركضون هنا وهناك في مرح الطفولة، أما الشبان فكانوا يلاحقون الفتيات، ويقتحمون عليهن حلبة الرقص.

ووقف اولينين و بيليتسكي على عتبة الباب يتحدثان في شبه همس، وكانا في زيهما الجركسي يلفتان الأنظار، وعلى كثب منهما كانت أوستنكا وماريانكا، في ثيابهما البالغة الأناقة، تدوران في حلبة الرقص، وأراد الشابان تحين الفرصة لجذب الفتاتين إليهما، وقد ظن بيليتسكي أن اللهو مقصد اولينين، بيد أن هذا كان يفكر جديا في البت في مصيره، كان يريد أن يقطع الشك باليقين في قبول ماريانكا الزواج منه، ورغم أنها سبق أن أوضحت له رأيها من هذه الناحية من تعذر قبول ذلك لما بينهما من فوارق، إلا أنه كان يأمل أن تفهم عاطفته على حقيقتها.

وأخذت بيليتسكي الدهشة عندما عرف ذلك وسأل اولينين:

– لم لم تنبئني من قبل، فكنت أجعل اوستنكا تدبر الأمر، يا لك من فتى!

– وما الذي يمكن أن تفعله اوستنكا؟ كل ما أريده الآن أن تأتي ماريانكا إلى منزل اوستنكا.

– أرجو أن أوفق إلى ذلك.

على أنه تحدث أولا إلى ماريانا قائلا:

– أين عقلك يا ماريانكا؟ كيف تفضلين فتى تافها مثل لوكاشكا على شاب جميل مثل اولينين؟!

ولكن ماريانكا لم تجب وعندئذ أقبل على اوستنكا ورجاها أن تعود إلى منزلها مصطحبة ماريانكا، وناشدها ألا تخيب رجاءه، وفي هذه اللحظة انطلقت الفتيات في أغنية محببة.وظهر لوكاشكا ونازركا وأخذا يتفحصان الفتيات، وطفق لوكاشكا يغني ثم قال:

– هل تتقدم إحداكن؟!

فدفعت الفتيات ماريانكا نحوه ولكنها تمنعت، واختلط الضحك والغناء بالقبلات والهمسات. ومر لوكاشكا أمام اولينين فحياه تحية مودة ثم سأله:

– هل جئت تنشد مشاهدة الرقص؟

– نعم.

وأسر بيليتسكي ببضع كلمات إلى اوستنكا فقالت:

– لا مانع. سنأتي.

واقترب اولينين من ماريانكا وهمس:

– أتوسل إليك أن تأتي ولو لبضع لحظات، لدي ما يهمني أن أفضي به إليك!

– إذا حضرت فتيات أخريات فسأحضر.

– أريد جوابا على سؤالي وأنت تمرحين الآن؟

وأرادت أن تبتعد عنه ولكنه تبعها وعاود توسله:

– أرجوك أن تجيبي على سؤالي.

– أي سؤال؟

– هل غاب عن ذهنك؟ ألا تتزوجينني؟

ولبثت ماريانكا لحظة تفكر.. ثم قالت:

– ستعرف جوابي الليلة!

ثم رشقت الشاب بنظرة حانية فتبعها اولينين بعد ذلك كالظل، فقد كان يشعر بالسعادة تغمره في القرب منها، وإذ لاحظ لوكاشكا ذلك أمسك بيدها وجذبها إلى وسط الحلقة فتشجع اولينين وقال لها:

– تذكري الحضور إلى منزل اوستنكا.

ثم قفل راجعا إلى صاحبه، وعندما انتهت الأغنية تبادل لوكاشكا وماريانكا قبلة، ولكن لوكاشكا اعترض قائلا:

– هذا لا يكفيني! لا أرضى بأقل من عشر قبلات!

ثم شرع لوكاشكا يوزع الحلوى على الفتيات، وحانت منه نظرة إلى اولينين، فقال يحدث الفتيات بقصد التهكم عليه:

– لتترك الحلقة من ترتمي على الجنود!

وتخطفت الفتيات الحلوى، وابتعد اولينين وبيليتسكي.

وقد أخذ لوكاشكا يهذي لفرط ما شرب وقال يخاطب ماريانكا:

– أجيبي يا حبيبتي، هل تهزئين بي؟ هل تحتقرينني؟!

ثم طوق اوستنكا وماريانكا بذراعيه، ولكن اوستنكا تخلصت منه ثم صفعته صفعة شديدة آلمت يدها. وتظاهر بأنه لم يغضب وسألها:

– هل من رقصة أخرى؟

– أرقص مع من تشاء غيري، سأعود للمنزل، وترغب ماريانكا أن تأتي معي.

وإذ سمع لوكاشكا ذلك، انتحى بماريانكا مكانا خلف منزل وقال لها:

– لا ترافقيها إلى منزلها يا ماريانكا، لا تضيعي فرصة المرح، هيا إلى منزلك وسأحضر في أثرك!

فأجابت ماريانكا بلهجة ذات مغزى:

– ماذا أفعل في المنزل؟ إنما جعلت الأعياد للمرح، وأنا سأذهب إلى منزل اوستنكا، لقد وعدتها.

– ستكونين زوجتي على أية حال، ألا تقدرين ذلك؟

–كل أمر مرهون بوقته، وسوف نرى عندما يحين الأوان!

– أنت إذن مصممة على الذهاب؟

ثم لان فاحتضنها ورشف قبلة عميقة.

– إنك تضايقني! اتركني.

وتخلصت من ذراعيه وافلتت مبتعدة.ولم يلبث أن عاوده الغضب فقال لها:

– لن ينتهي الأمر إلى خير، ولسوف تندمين.

ونحى عنها ويمم شطر الفتيات الأخريات. وأقلقها تهديده فرددت قائلة:

– ما ذلك الذي لن ينتهي إلى خير؟

– ذلك!

– أفصح؟

– غرامك بالساكن عندكم وانصرافك عني.

– إن اهتمامي بقدر حبي! لست أبي، ولست أمي! إنني اهتم بمن أشاء!

– حسنا... ولكن تذكري جيدا!

وعاد إلى الجمع وطلب من نازركا مزيدا من الشراب.وسأل اولينين بيليتسكي:

– ترى هل تحضران؟

– لا شك عندي في ذلك، أسرع لنعد حفلة رقص.

* * *

كان قد انسلخ الهزيع الأكبر من الليل، وخرج اولينين في أثر ماريانكا وأوستنكا. ولمح منديل الفتاة وكأنه نجمة مضيئة وسط الظلام، وقد أخذ القمر يتوارى تمهيدا للاحتجاب، والضباب يكسو سماء القرية، وكان كل شئ ساكنا إذا استثنينا صوت أقدام الفتيات العائدات إلى منازلهن وأخذ قلب اولينين يدق دقات متتابعة وينبض نبضا سريعا، وقد لطف نسيم الليل من حرارة وجهه الملتهب. ورفع اولينين بصره إلى السماء ثم تحول به إلى المنزل الذي غادره وقد لفته الظلمة بعد إطفاء الشموع، فأخذ يبحث عن ماريانكا وأوستنكا وأحس بسعادة لا حد لها تغمره، ونشوة دافئة محببة، فهبط الدرج قفزا وأسرع نحو الفتاتين وإذ شعرت أوستنكا بتتبعه لهما قالت له:

– ما هذا أيها الولهان؟ ماذا يكون لو رآنا أحد..؟

– خل عنك.

ولم يتمالك اولينين نفسه أن احتوى ماريانكا بين ذراعيه وأخذ يمطرها بقبلات حرى، ولم تتمنع الفتاة ولم تقاومه.

وذهلت اوستنكا فقالت له:

– ما هذا أيها الغرير؟ ألا تشبع من تقبيلها؟ تزوجها أولا، ثم قبلها ما شئت.

– طابت ليلتك يا معبودتي ماريانكا، لا تبوحي بشيء، سأحضر غدا وأقابل والدك وأبسط له الأمر.

فقالت ماريانكا في دلال سلب لب الفتى:

– ولماذا أبوح أنا..؟

وأسرعت الفتاتان تركضان وتركتا الفتى غارقا في أفكاره الحالمة.. لقد انتحى بها جانبا وأخذ يحدثها هامسا:

– هلا تزوجتني؟

فأجابت في مرح:

– قد تخدعني، ولا تتزوجني!

–كلمة أريدها من فمك! هل تحبينني؟

فضحكت ماريانكا وأخذت تفرك يديه بيديها ثم قالت:

– ولم لا أحبك؟ إنك لست قبيح المنظر! ما أبدع يديك البضتين الناصعتي البياض.. إنهما كالقشدة!

– إنني لا ألهو، بل أقول جدا، أتقبلين ان تتزوجيني؟

– لا أمانع إذا وافق أبي!

– جميل وعظيم، ولكن إذا خدعتني طار صوابي وفقدت عقلي، سأخطبك من والدك وأمك.

فانفجرت ماريانكا بالضحك.

– ما الذي يضحكك؟

– يبدو لي الأمر مضحكا!

– حقا! وسأقتني كرمة ومنزلا وسأضم نفسي إلى زمرة القوقازيين

– ولكن حذار من ملاحقة النساء، فإنني شديدة في ذلك لا أتهاون.

وكان اولينين يردد كلماتها وهو يستشعر عذوبتها. وقد أدهشه أن تظل على هدوئها وهي تتحدث معه. وخطر له أن حبها انبثق في تلك اللحظة، وأنها تنسج في خيالها المستقبل الذي ستعيش فيه.وغمرته السعادة لأنه لمس في كلماتها الصدق، ووضح أمامه موافقتها على الزواج منه، وأخذ يناجي نفسه:

– ستفهمني عندما تصبح لي جسدا وروحا، إن الكلمات لتعجز عن تصوير حبي، ما عدت أستطيع العيش هكذا، سأبوح بكل شئ في الغد، لأبيها وبيليتسكي وبيروشكا، بل لأهل القرية جميعا:

أما لوكاشكا فقد أفرط في الشراب إفراطا لم يحتمله، بعد أن قضى ليلتين أرقا يتلظى. وقد عجزت ساقاه عن حمله فنام في منزل يانكا.

* * *

وما إن انبلج صبح اليوم التالي حتى كان اولينين قد قام من فراشه مبكرا عما تعود، ولا عجب فأحداث الليلة الماضية بعثت في نفسه روحا جديدة، وفكر فيما ينبغي أن يفعل.واستعاد في ذهنه كل كلمة قالتها له ماريانكا وبخاصة عندما قالت:

"ما أجمل يديك الناصعتي البياض"، واستشعر حلاوة وعذوبة قبلاته لها،

ففكر أن يتوجه في التو إلى كوخ حامل العلم ليفضي إليه وإلى زوجته بمكنون نفسه، ويطلب إليهما الموافقة على زواجه من ماريانكا بل ومباركة هذا الزواج.

وطرق سمعه صخب وهرج في الشارع، ولم تكن الشمس قد أشرقت بعد، فكان الناس غادين أو رائحين، راجلين أو فوق الجياد، وهم يطنون بالحديث كخلايا النحل. وارتدى اولينين سترته وخرج إلى الباب، وكان أهل الدار لا يزالون نياما، فرأى خمسة من القوقازيين فوق جيادهم يتقدمهم لوكاشكا، وكانوا جميعا يتحدثون حتى كان من الصعب أن يفهم المرء ما يقولون، وفجأة صاح واحد منهم:

– هيا نحو نقطة الحراسة الرئيسية!

وقال آخر:

– عليكم بالجياد وأسرعوا وراءنا!

– الباب الآخر أقرب.

فاعترض لوكاشكا وصاح:

– ما هذا التخبط؟ ليس من سبيل سوى الباب الأوسط.

وفرض لوكاشكا نفسه على الجماعة في موضع القيادة، فكان يلقي إليهم بالأمر تلو الأمر، وقد صار وجهه أحمر كالدم لفرط ما شرب في الليلة الماضية.

وعن لأولينين أن يستوضح الأمر فأجابه أحدهم:

– خرجنا للقبض على بعض الأبركة ونحن في انتظار رفاقنا.

واكتمل عددهم بمرور الوقت وخطر لاولينين أن من الصواب أن يصحبهم، فحمل بندقيته وامتطى جواده، ولحق بهم فوجدهم يشربون الجكير – وكانوا قد أتوا به معهم – ولاحظ اولينين أن الجميع يدينون بالطاعة للوكاشكا بالرغم من أنه لا يزيد عنهم رتبة ولم يأبه الجنود بأولينين، فاقترب من حامل العلم، وكان دمث الخلق، فعرف منه جلية الأمر، إن الكشافين سعوا بحثا عن الأبركة الذين كمنوا لهم وأخذوا يمطرونهم وابلا من الرصاص، فبعث الكشافة في طلب النجدة.

وأشرقت الشمس وامتدت المراعي ثلاثة فراسخ وراء القرية، فلا ترى إلا أرضا جرداء وقد ظهرت فيها آثار أقدام الماشية حول الكلأ الجاف، وتبدو في الأفق مضارب النوغاي كالحة المعالم.

كان السكون الشامل هو طابع هذه المراعي، تشرق عليها الشمس ثم تغرب، فكان يشمل النفوس شعور غريب بصفاء ذلك الجو ولم يقطع هذا السكون سوى وقع حوافر الجياد وصليلها، الذي لا يلبث أن يهدأ ويخفت أيضا، وشمل الصمت الرجال فكانوا لا يتحدثون إلا قليلا، ويحرص القوقازي ألا يصدر صوت من سلاحه، فقعقعة السلاح عند القوقازيين عار.

وأقبل قوقازيان نحو السرية وهمسا إلى رجالها. ولاحظ لوكاشكا أن جواده يتعثر فيحزن، وكان ذلك نذير شر عند القوقازيين، فلفت ذلك نظر الجماعة ثم لم يلقوا إليه بالا. أما لوكاشكا فكان يجذب العنان في غضب ظاهر وصبر نافد، ويلوح بسوطه فوق رأس الجواد الذي كان يتوثب، يقدم رجلا ويؤخر أخرى، فينهال عليه لوكاشكا بسوطه مرة ومرتين وثلاثا، فيحزن الجواد غضبا ويبتعد عن

الجياد، فقال شيخ من القوقازيين:

– إنه أسد في صورة جواد.

ومضى القوقازيون في سيرهم تبطئ جيادهم حينا وتسرع حينا حتى قطعوا في سيرهم نحوا من عشرة فراسخ لم تصادفهم خيمة من خيام النوغاي سوى واحدة أقيمت على عربة، ويرجح أنها كانت في طريقها إلى مكان آخر. ثم قابلوا امرأتين من النوغاي يبعث مظهرهما على الرثاء بثيابهما الرثة وعظامهما البارزة، تجمعان روث الماشية. وقد أراد حامل علم السرية أن يكلمهما فلم تفهما ما قاله، ونظرت كل منهما للأخرى في دهشة وقلق.

ووافاهما لوكاشكا وحياهما فاطمأنتا إليه وأخذتا تحدثانه. ثم أشارتا إليه صوب جمع كبير من الأبركة.

ولم تك قد مرت بأولينين تجربة من هذا النوع، بل كانت كل معلوماته من الحكايات التي كان يلقيها إليه بيروشكا. فأراد أن يمارس ذلك بنفسه حتى تكون ملاحظاته على أساس صحيح.

على أنه عندما قوبل بالجفوة من القوقازيين، بعد أن حمل سيفه وبندقيته، استقر رأيه على عدم مشاركتهم في القتال، وهذا لا يتنافى مع اعتداده بشجاعته، وكانت نبضات قلبه تنبئ بالسعادة.

وفجأة طرق الأسماع صوت طلقة بعيدة، فنشط حامل العلم إلى إصدار الأوامر ووضح الجهة التي يهجمون منها. ولكن القوقازيين لم يلقوا إليه بالا، وإنما تلقوا الأوامر من لوكاشكا الذي اتصف بالحزم ورباطة الجأش، وحث جواده على الجري حتى سبق الآخرين وأخذ يدقق النظر أمامه ثم توقف وقال:

– انظروا! هناك رجل يمتطي صهوة جواد.

واتجه اولينين إلى الناحية التي أشار إليها لوكاشكا فلم ير شيئا.ولمح القوقازيون عن قرب فارسين، فحثوا السير نحوهما.

وسأل اولينين:

– أهما من الابركة؟

ولكن القوقازيين تجاهلوا سؤاله ولاذوا بالصمت، وبدا لهم أنه سؤال تافه. فليس الأبركة من البلاهة حتى يغامروا باجتياز النهر فوق جيادهم.

وأشار لوكاشكا إلى فارسين ظهرا للعيان وصاح:

– هذا صديقنا زادكا، إنه يحيينا، إنه مقبل إلينا!

واتضح أنهما الكشافان القوقازيان. واتجه الجندي إلى لوكاشكا.

الفصل الثامن عشر

سأل لوكاشكا:

– هل هما بعيدان عنا؟

ثم دوت في الجو طلقة حادة على بعد خمسين خطوة، فابتسم الجندي وأشار إلى اتجاه الطلقة وقال:

– إنه الصديق جوركا يطلق عليهم رصاصه.

ولمح الجند جوركا وهو قابع خلف تل صغير، يحشو بندقيته ويناوش الأبركة بطلقاته. وانطلقت رصاصة أحدثت صفيرا حادا فشحب وجه حامل العلم وعراه الاضطراب، وترجل لوكاشكا وسار صوب جوركا، كما ترجل اولينين وتبع لوكاشكا. وما إن أصبحا أمام جوركا حتى مرقت رصاصتان فوق رأسيهما، فأشفق لوكاشكا على اولينين وحذره قائلا:

– أخشى أن يقتلوك، من الخير أن ترحل، ليس هذا مكانك.

على أن اولينين كان قد وطد العزم على مشاهدة الإبركة، وحانت منه التفاتة فإذا به يرى على بعد عشرات من الخطوات بنادق وخوذات تطل من وراء الربوة، ثم رأى دخانا ومرقت بجواره رصاصة أخرى سمع لها صفيرا مدويا. وقد اختبأ الابركة وراء تل، وتركز اهتمام اولينين على موقعهم، ولدهشته تبين له أنهم تخيروا مخبأ حصينا يلوذون به. فرجع لوكاشكا إلى حيث ترك جواده وفي أثره اولينين. ثم قال لوكاشكا:

– إن لم نجد عربة دريس فمصيرنا القتل جميعا! هناك عربة للنوغاي محملة بالدريس.

وما إن سمع حامل العلم والجندي ذلك حتى أتيا بالعربة، فاحتمى بها القوقازيون ولكن اولينين ارتقى تلا صغيرا ليكشف منه كل ما يدور وسارت العربة تحمي القوقازيين، أما الحجن، وكانوا عشرة، فقد جلسوا متلاصقين وكفوا عن إطلاق النار وخيم السكون لحظة، قطعته أصوات الحجن ينشدون أنشودة وطنية، وكانوا يعلمون أن لا مفر من القتال، فاستبسلوا وربطوا سيقانهم إلى بعضها حتى لا يفكر بعضهم في النكوص، وجعلوا ينشدون أنشودة الموت، وهو طابع يتميزون به في معاركهم.

وأخذ القوقازيون يقتربون محصنين أنفسهم بالعربة، واعتقد اولينين أن المعركة ستبدأ، ولكنه لم يسمع إلا أنشودة الحجن، وفي طرفة عين توقف النشيد وانبعثت طلقة أصابت العربة وعلت صرخات الحجن، وتوالت الطلقات تصيب العربة، ولكن القوقازيين أمسكوا عن إطلاق النار.

وانقضت لحظة أخرى، ثم ارتفع صوت القوقازيين في صرخات مدوية وهم ينطلقون من العربة، وكان لوكاشكا في مقدمتهم وسمع اولينين الطلقات، ثم سمع الصراخ والإناث كما رأى دخانا ودماء، فترجل وجرى نحو القوقازيين في غير وعي، وكان الرعب قد أفقده النظر فلم يتبين شيئا ولكنه أدرك الموقف المحزن أما لوكاشكا فقد غاض الدم من وجهه، على أنه تشبث بذراعي جريح من الحجن وصاح:

– ابقوا عليه.. أريده حيا!

أما هذا الحجني فكان هو الرجل ذو الشعر الأحمر الذي نقل جثة أخيه الذي قتله لوكاشكا. وكان لوكاشكا يشدد وثاق الحجني فتخلص هذا منه وصوب إليه مسدسه وأطلقه، فسقط لوكاشكا والدم ينزف من أمعائه، وحاول الوقوف ولكنه هوى، وازداد تدفق الدم، فهرع إليه بعض رفاقه لإسعافه، وفكوا حزامه، وانتاب نازركا ذهول فلم يدر ماذا يفعل ليسعف صديقه.

وقد مزق الرصاص الحجن بشعورهم الحمراء وشواربهم إربا، والرجل الوحيد الذي نجا منهم هو الذي أطلق الرصاص على لوكاشكا، وإن كانت الجراح قد أثخنته في أكثر من موضع من جسمه، ذلك لأنه كان قد عقد العزم على الاستماتة في الدفاع عن نفسه. فأمسك بخنجره متحفزا كأنه الأسد، بينما كان الدم يسيل من وجهه، وخدعه حامل العلم ثم باغته بطلقة في رأسه، فترنح الحجني ثم هوى وجمع القوقازيون الأسلحة والجثث وهم لاهثوا الأنفاس، ونقل لوكاشكا إلى العربة وهو لا يكف عن صب اللعنات ثم صاح:

– دعوني أخنقه بيدي!

ولكن قواه خارت فعجز عن الحركة.

أما اولينين فقد عاد إلى داره، ووصل إلى علمه أن لوكاشكا في طريقه إلى لقاء ربه، وإن واحدا من التتر قال إن في إمكانه أن يشفيه بنوع معين من العشب.

وتزاحم النساء والأولاد ليروا الجثث التي نقلت إلى القرية. وكان الظلام قد خيم على القرية عندما عاد اولينين، وعجز الفتى عن جمع شوارد ذهنه بعد الذي رأى.

وما لبثت الذكريات أن تدافعت في مخيلته، فجلس إلى النافذة، وأطل، فلمح ماريانكا في غدوها ورواحها بين الدار والحظيرة، وقد يممت أمها شطر الكرمة، وخرج أبوها إلى المكتب، فنفد صبر اولينين ولم يستطع الانتظار، بل اندفع خارجا ليلقاها، وكانت في الكوخ وظهرها إليه. وظن اولينين أنها لا تكلمه حياء، فقال:

– حبيبتي ماريانكا، أريد أن أدخل!

وكأنما قد بوغتت بكلامه، فمحت أثر الدموع من عينيها، وبدا وجهها أكثر جمالا وروعة في حزنها، ونظرت إليه في صمت رهيب.

ولكن اولينين لم يحتمل ذلك فعاد يكلمها:

– معبودتي ماريانكا.. لقد حضرت..

ولكنها أجابته في رزانة:

– بالله عليك، اتركني وشأني!

وظل وجهها جامدا. أما الدموع فقد تدفقت منهمرة من عينيها.

– لماذا تبكين يا حبيبتي؟ ماذا هناك؟ ما خطبك؟

ورددت كلمته الأخيرى:

– ما خطبي؟ لقد قتل القوقازيون، هذا هو الخطب.

فقال اولينين:

– تقصدين لوكاشكا؟

– اغرب عن عيني! ماذا تريد مني؟

فدنا منها اولينين وهمس حالما:

–.. ماريانكا..

– لن تنال مني مأربا!

– ماريانكا.. بالله لا تقولي ذلك!

ونفد صبر الفتاة، فضربت الأرض بقدمها وتقدمت منه مهددة وصاحت:

– أغرب عني، إنني أكرهك.

وارتسمت على وجهها صورة مجسمة للبغض والاحتقار والغضب مما جعل اولينين يعتقد أن لا أمل له فيها، وأنه كان على حق حينما شعر في قرارة نفسه أنه لا سبيل إلى هذه الفتاة. وكف اولينين عن محادثتها، وترك الكوخ وخرج هائما على وجهه.

* * *

أثرت الصدمة في نفس اولينين حتى أنه عندما عاد إلى داره رقد في فراشه لا يبدي حراكا كأنه في غيبوبة. ثم طلب من قائد سريته أن ينقله ويلحقه بأركان الحرب، وأخذ يعد العدة للرحيل إلى حيث كانت تعسكر كتيبته من غير أن يودع أحدا، فأرسل فانيوشا لدفع الحساب لصاحب الدار. ولم يحضر لوداعه إلا شخص واحد، هو بيروشكا، وشرب الاثنان كأسا، ثم ثانية ثم ثالثة، وحضرت العربة التي ستنقله يجرها ثلاثة من الجياد تماما كالعربة التي نقلته في موسكو، ولكن شتان بين حاله وقتذاك والآن.

إنه يحب ماريانكا الآن أكثر مما أحبها من قبل، ولكنه يعلم أن لا سبيل له إليها، لذلك لم يعد بحاجة إلى التفكير والمناجاة، بل لم يفكر في حياة جديدة يحياها.

وخاطبه بيروشكا قائلا:

– الوداع يا عزيزي، إذا توجهت في حملة فاجعل الحكمة رائدك وتذكر كلمات هذا الشيخ المحنك الذي يحدثك الآن، وإذا كنت في غزوة، ورأيت إطلاق النار، فابتعد عن زحمة الرجال. فإن الرعب يدفع الشباب إلى التجمع ليأنس كل بالآخر، ولكن العدو يختار هدفه في الزحمة، وقد كانت هذه خطتي وها أنت ذا ترى أنه لم يصبني جرح في حياتي، وفوق كل ذي علم عليم.

وما إن انتهى من محاضرته حتى انبرى له فانيوشا – وكان يرتب الغرفة – قائلا:

– إنني أرى أثر رصاصة استقرت في ظهرك!

ولكن بيروشكا أجاب فورا:

– إنها أثر عزيز لمزاح قوقازي!

فأدهش ذلك اولينين وسأله:

– إني لا أفهم! كيف حدث ذلك؟

– إذن فاستمع: لقد كنا في مجلس من الشراب، فلعبت الخمر بالرؤوس، واستخفت النشوة فانكا.. فلعبت اصابعه، فكانت طلقة أصابتني في هذا المكان من جسمي!

فعاد اولينين يسأله:

– وهل سببت لك أذى؟

ثم أردف فانيوشا:

– هل تنتهي من إعداد معدات السفر بسرعة؟

– علام العجلة أيها الفتى! دعني أروي القصة.. عندما انطلقت الرصاصه، لم تصب العظم، بل استقرت في موضعها فقلت له:

– لقد قتلتني أيها الصديق، ماذا أعددت لي. لن أدعك تفلت، حق عليك أن تقدم لي ما يكفيني من الخمر!

فعاد اولينين يسأله مرة أخرى وهو شارد الذهن كأنه لم يسمع:

– ولكن هل سببت الإصابة أذى لك؟

– انتظر حتى أتم قصتي. وأجابني الرجل إلى طلبي فأحضر سطلا من الخمر شربناه، على أن الدم ظل ينزف حتى روى أرض الغرفة فاستدرك العم بولاك قائلا: إن الفتى لابد هالك، عليك بزجاجة من النبيذ وإلا فمصيرك إلى المحاكمة! فأتوا بمزيد فشربنا...

وعاد اولينين إلى سؤاله:

– دعنا من كل ذلك، هل آذتك الرصاصة؟

– لقد أوذيت حقا، وأرجوك ألا تقاطعني فتقطع علي حبل القصة حتى أتمها. شربنا حتى الصباح التالي، ثم نمت فوق الموقد وأنا في حالة من السكر

بالغة، وعندما استيقظت، تبين لي أني عاجز عن أن أنصب قامتي..

فقال اولينين:

– هل كانت الإصابة مؤلمة؟

– وهل قلت ذلك؟ قلت أنه لم يعد في مقدوري أن أنصب قامتي وإنني لا أستطيع السير.

وسأله اولينين وقد غلبه التأثر حتى استعصى عليه الضحك:

– وهل التأم الجرح؟

– نعم، ولكن الرصاصة لا تزال في جسمي مستقرة، تحسس موضعها!

وكشف العجوز عن ظهره حيث ظهر موضع الرصاصة بجانب العظم.

واستطرد يقول وهو يحرك الرصاصة وكأنها لعبة يلهو بها:

– تحسس! إنها تتحرك، وهي الآن مقلوبة!

وعاد اولينين يسأل:

– أيشفي لوكاشكا؟

– الله أعلم، ليس في القرية طبيب، وهم يلتمسونه.

– وأين يمكن أن يلتمسوه؟ في جروزنايا؟

– كلا يا عزيزي، ولو كنت أنا القيصر لحكمت باعدام جميع الأطباء الروس، فهم لا يفقهون شيئا ولا يجيدون سوى البتر! ونظرة إلى المواطن باكلاشيف، هل تسميه رجلا بعد أن بتروا ساقه!؟ أليس في هذا الدليل على

جهلهم! ما الذي يصلح له هذا الإنسان الآن؟! لا يا عزيزي، إن في الجبال أطباء بمعنى الكلمة. ولكي أدلل لك، أخبرك عن صديقي جيرشيك، وقد كان في حملة وأصيب في صدره، وقرر أطباؤكم استحالة شفائه، فجاء طبيب من أهل الجبال وشفاه، إن خبرتهم بالأعشاب عظيمة.

فقاطعه اولينين إذ كان سيستمر في محاضرته قائلا:

– كفي هذا الهراء! سأبعث له بطبيب من القيادة.

– إن ما تقوله هو الحمق بعينه! تبعث له بطبيب! يا لها من مهزلة! أيفقه اطباؤكم في الطب شيئا؟ إن عظماءكم هم الذين يلتمسون الشفاء عند أطباء الجبال! أطباؤكم مخادعون أيها الفتى!

وفكر اولينين دون أن يتكلم ولكنه أيقن أن الدنيا خداع في خداع.

ثم عاد يسأل:

– أتوجهت إلى لوكاشكا؟ كيف صحته الآن؟

– إنه طريح الفراش كالمسجى، لا يتناول طعاما، وزاده شراب الفودكا، ولا خوف عليه من ذلك. كم أنا حزين من أجل ذلك. كم أنا حزين من أجل ذلك الشاب، إنه رمز الشجاعة.. مثلي تماما.. لقد أوشكت أن أموت في يوم من الأيام، وأخذت النسوة يصرخن، وكان رأسي شعلة من النار، وبلغ بهم الأمر أن أخذوا يستعدون لدفني فوضعوا تحت رأسي أيقونة، والتف حولي بعض الصبية يدقون الطبول، فصرخت فيهم فازدادوا صخبا، وحضر الكاهن. وقيل أنني تدنست، وأنني عشقت النساء ومارست القتل وبالاختصار صادقت الشيطان،

وطلب مني أن اعترف فكنت أردد كلمة "أنا مذن"، وسألني الكاهن عن قيثارتي التي وصفها "بالملعونة"، وكنت قد أخفيتها. هل تدري ماذا حدث بعد كل ذلك؟ لقد شفيت! وعدت إلى سابق حالي.. تجنب يا عزيزي مخالطة الناس تسلم! إنني أدعو لك من قلبي، إنني أحبك، الشباب كله طموح. أنظر إلى ما أصاب شابا روسيا كان يقيم هنا أورده طموحه موارد الهلاك إذ قتله رجل من الحجن البارعين في التصويب. لشد ما يفزعني أن يصرع الشبان الأعزاء. إن عادات جنودكم هي التي تهلكهم، فهم يسيرون في جماعات ومن يموت منهم يترك ويحل محله آخر.. أليس هذا هو الجهل بعينه؟ تذكر جيدا نصائحي يا عزيزي

وهم اولينين متجها صوب الباب وقال:

– إنني عاجز عن الشكر أيها الصديق الحميم! إلى الملتقى، يشعر قلبي أننا سنلتقي بعد ذلك بمشيئة الله.

وأنصت إليه الشيخ وهو جالس على أرض الغرفة دون أن ينهض ثم قال:

– طريقة طريفة في توديع الناس! بلاهة ولا شك، لقد توثقت عرى الصداقة بيننا سنة بأكملها فتقول "وداعا" ثم ترحل! إنني أعزك يا فتى، يعتصر الكمد قلبي من أجلك، بل يجفوني النوم أحيانا...

وعاد اولينين يقول ثانية:

– الوداع يا صاح.

وعندئذ نهض بيروشكا ومد يده فسلم عليه اولينين في حرارة ثم استدار..

لكي يرحل. وفي هذه اللحظة أمسك بيروشكا رأس اولينين بكلتا راحتيه وقبله عدة قبلات ولم يتمالك نفسه فانخرط في البكاء وقال من بين عبراته:

– وداعا.. إني أحبك.. وداعا.

واحتوت العربة اولينين.

ولكن الشيخ قال وهو لا يزال يبكي بكاء مرا في نبرة صادرة من أعماق قلبه:

– أحقا حانت ساعة الرحيل. ما أريد أن أذكرك بشئ.. أي شئ. بندقية مثلا، فلديك أكثر من واحدة!

فبادر اولينين وأجابه إلى مطلبه، وأهداه إحدى بندقيتيه.

ولكن هذا التصرف من جانب بيروشكا لم يعجب فانيوشا فقال بصوت ينم عن الاستياء والضجر:

– لقد أسبغت عليه الكثير، ولكنه لا يقنع! إنه عجوز جشع، إن هؤلاء القوقازيين غريبو الأطوار!

فصاح به بيروشكا مزمجرا:

– احفظ لسانك أيها المفتون! يا لك من فتى ضنين!

وفي هذه اللحظة ظهرت ماريانكا خارجة من حظيرة البقر وألقت ببصرها صوب العربة، وأحنت رأسها تحية للساكن الراحل، ثم واصلت سيرها نحو الكوخ.

وإذ رآها فانيوشا غمز بعينه وارتسمت على شفتيه ابتسامة بلهاء وقال..!

– الفتاة..!

ولكن اولينين زجره بصوت صارم قائلا:

– سر! وأسرع!

وكانت آخر كلمة نطق بها بيروشكا وهو لا يملك نفسه من التأثر:

– لن أنساك!

ونظر اولينين خلفه فرأى بيروشكا وماريانكا يتحدثان. وأغلب الظن أنهما كانا يتحدثان عنه، ولكن لم ينظر ماريانكا ولم ينظر بيروشكا... إلى اولينين.

الفهرس